قبس من سيرة الرسول

● ملامح الشخصية :

من الأهمية بمكان التعرف على الملامح التى تعين على رسم صورة صادقة لشخصية الأنبياء فى شتّى مظاهرها الجسمية والخُلُقية والسلوكية ، فذاك شىء تتحرق له البشرية وترجوه . ولكم كتب الكُتّاب والباحثون وفاضت كتاباتهم بالحسرة والألم من قلة المعلومات والبيانات التى تفتقدها السيرة الذاتية لاثنين من أصحاب الرسالات الكبرى هما موسى وعيسى .

ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ما يقوله « دنيس نينهام » فى مقدمة تفسيره لإنجيل مرقس : « **إنها لحقيقة تصدمنا أنهم (كَتَبة الأناجيل) لم يخبرونا بأى شىء عن هيئة (يسوع) وبِنْيته الجسمية وصحته ، كما لم يخبرونا بشخصيته وعما إذا كان - على سبيل المثال - سعيداً مبتهجاً رابط الجأش ، أم أنه كان على العكس من ذلك .**

إنهم لم يفكروا - حتى - أن يخبرونا بطـريقة قاطعة عما إذا كان قد تزوج أم لا .

كذلك فإنهم لم يعطونا معلومات محددة عن طول فترة دعوته أو عمره حين توفى ، كما أنه لا توجد أقل نبذة عن تأثير بيئته الأولى عليه أو عن أى تطور فى نظرته ومعتقداته .

لقد أمكن حساب الفترة التى تلزم لإتمام الأحداث التى يرويها مرقس فوُجِدَ أنها لا تتعدى ثلاثة أو أربعة أسابيع ، عدا الفقرة (١ : ١٣) التى تقول : « وكان هناك فى البرية أربعين يوماً يُجَرَّب من الشيطان » ...

لقد دفعت هذه الحقيقة « ستريتر » أن يقرر فى كتابه : الأناجيل الأربعة - (ص ٤٢٤) : أن المجموع الكلى للأحداث التى سجلها الإنجيل صغير جداً

لدرجة أن الثغرات الموجودة فى الرواية لا بد أن تكون هى الجزء الجدير بالاعتبار » [١] ..

هذا .. على حين تزخر سيرة محمد بكل ما هو ضرورى وكاف لبيان حقيقة هذه الشخصية العالَمية كَبشر ثم كنبى صاحب كبرى الرسالات .

وعند الحديث عن ملامح الشخصية لمحمد خاتم النبيين نجد وفرة فى كتب السيرة تتضافر جميعها لتعطينا صورة متآلفة عن الخواص الجسمية والنفسية للرسول . ويحدثنا فى هذا اثنان ممن تربيا فى حِجر رسول اللّه هما هند بن أبى هالة - وكانت أُمه خديجة بنت خويلد الزوجة الأولى والوحيدة طيلة حياتها مع الرسول - ثم علىّ بن أبى طالب وقد احتضنه الرسول منذ صباه .

*

قال هند وقد سأله الحسن بن علىّ عن صفات رسول اللّه :

« كان أطول من المربوع [٢] وأقصر من المشذب [٣] ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، إذا تفرقت عقيصته [٤] فرَّق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه .. أزهر اللّون [٥] ، واسع الجبين ، أزج الحواجب [٦] سوابغ [٧] فى غير قرن بينهما .. ، كث اللحية [٨] ، أدعج [٩] ، سهل الخدين [١٠] ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان . دقيق المسرُبة [١١] .. معتدل الخَلْق ، بادن متماسك ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس [١٢] .. موصول ما بين اللّبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ص ٤٥ .

(٢) الرجل الوسيط القامة .

(٣) الطويل .

(٤) الشعر الذى يلوى (ضفيرة) .

(٥) أبيض اللّون فى صفاء .

(٦) حواجب دقيقة فى طول .

(٧) تامة وكاملة .

(٨) غزير شعرها .

(٩) شديد سواد العين مع شدة بياضها .

(١٠) قليل لحمها .

(١١) المسربة من الشعر : وسط الصدر إلى البطن .

(١٢) رؤوس العظام .

ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة .. ، شثن الكفين [١] والقدمين ، سابل الأطراف ، خمصان الأخمصين [٢] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء .

إذا زال زال قلعاً ، يخطو تكفياً ، ويمشى هوناً ، ذريع المشية [٣] ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب [٤] ، وإذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة . يسوق أصحابه [٥] ، يبدأ من لقيه بالسلام » .

وقال هند بن أبى هالة فى وصف منطقه : « كان متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة ، لا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، يتكلم بجوامع الكلم ، فصل لا فضول ولا تقصير ، دمث [٦] ليس بالجافى ولا المهين .

يُعَظِّم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه .

لا تُغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تعرَّض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له . ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجَّب قلبها ، وإذا تحدث يصل بها ، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غَضَّ طرفه . جل ضحكه التبسم » .

وقال الحسن : سألتُ أبى عن دخول رسول الله فقال : « كان دخوله لنفسه مأذون له فى ذلك . وكان إذا آوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء :

جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزَّأَ جزأه بين الناس ، فردَّ ذلك على العامة والخاصة لا يدخر عنهم شيئاً . وكان من سيرته فى جزء الأُمة إيثار

---

(١) غليظ الأصابع .
(٢) شديد التجافى عن الأرض .
(٣) سريع المشية .
(٤) كأنما ينزل فى موضع منحدر .
(٥) يمشى وراءهم .
(٦) سهل الخلق والمعاملة .

أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين ، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج : فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من سألته عنهم وإخبارهم بالذى ينبغى ويقول : ليُبلغ الشاهد الغائب ، وأبلغونى حاجة مَن لا يستطيع إبلاغى حاجته » .

قال : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ، فقال : « كان رسول اللّه يخزن لسانه إلا بما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه . يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس ويُحَسِّن الحسن ويُقَوِّيه ، ويُقَبِّح القبيح ويُوَهِّيه . معتدل الأمر غير مختلف،لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا . لكل حال عنده عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجوزه . الذين يلونه من الناس خيارهم . أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » .

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان فقال : « كان رسول اللّه لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ..

وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك . يعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

مَن جالسه أو قاوَمه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومَن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول . وقد وسع الناس من بسطه وخُلُقه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء .

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لا تُرفع فيه الأصوات ولا تئوبَّن فيه الحُرَم ولا تُثَّنى فلتاته . متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب » .

قال : فسألته عن سيرته فى جلسائه فقال : « كان رسول اللّه دائم البشر سهل الخُلُق ليِّن الجانب ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب ولا فحَّاش ولا عيَّاب ولا مزَّاح .

يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه (راجيه) .. قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يُعَيِّره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه . ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة فارفدوه .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام » .

قال : فسألته كيف كان سكوته ، قال : « كان سكوته فى أربع : الحلم والحذر والتقدير والتفكر . فأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تذكره - أو قال تفكره - ففيما يبقى ويفنى . وجُمِعَ له الحلم والصبر ، فكان لا يغضبه شىء ولا يستفزه » .

*

إن طبيعة البيئة التى بدأت فيها الدعوة إلى الإسلام تتطلب من الداعية صبراً وحلماً يفوق كل حد . ولقد تكفَّل اللّه بذلك فأسبغ على رسوله من كريم السجايا وعظيم الأخلاق ما يتفق ومطالب إنجاح الدعوة . وقد سجَّل الحق ذلك فى قوله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

*

لقد كانت تلك هى الخطوط العامة لملامح شخصية الرسول ، ولكن ليزداد الأمر وضوحاً كان علينا أن نعرض صوراً مختلفة للرسول نقتبسها من حياته الشخصية والعامة ، ونُقَدِّم أنماطاً من سلوكه وفكره ومنهجه فى مختلف مراحل حياته بعد أن صار نبياً .

ونبدأ بالبحث عن أوجه الكسب الشخصى التى يمكن أن تعود على الرسول من رسالته التى تحمّل فى سبيلها الكثير من المخاطر والآلام والأحزان . فنجده قد جرّد نفسه وأهله من كل ما يمكن احتسابه كسباً أو منفعة ، فقد عاش فقيراً زاهداً ، أمضى جل حياته يعانى آلام الجوع وشظف العيش طوعاً واختياراً .

قال علقمة بن مسعود : اضطجع رسول اللّه على حصير فأثّر الحصير بجلده ، فجعلتُ أمسحه وأقول : بأبى أنتَ وأمى ، ألا أذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه ؟ فقال : « ما لى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلى كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

وقال أبو هريرة : والذى نفس أبى هريرة بيده ، ما شبع نبى اللّه وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فَارَقَ الدنيا .

وقالت عائشة : إنّا كنا آل محمد ليمر بنا الهلال (الشهر) ما نوقد ناراً (للطبخ) إنما الأسودان : التمر والماء . إلا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلى رسول اللّه بلبن منائحهم فيشرب ويسقينا من ذلك اللّبن .

ولم يكتف رسول اللّه بعيش الكفاف الذى فرضه على نفسه وعلى أهله ، إنما حَرَّم عليهم ميراثه فى ذلك القليل من حطام الدنيا الذى تركه .

قال عمرو بن الحارث : ما تَرَكَ رسول اللّه ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة .

ولقد توفى رسول اللّه ودرعه مرهونة عند يهودى وفاءً لطعام اشتراه منه ، فما وجد ما يفكها به من دراهم حتى مات .

وبعد وفاة الرسول ذهبت ابنته فاطمة وعمها العباس إلى أبى بكر يطلبان أرضه من فَدَك وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر : **سمعتُ رسول اللّه يقول : « لا نُوَرَّث ، ما تركناه صدقة »** .

فغضبت فاطمة وهجرت أبا بكر ، فلم تزرل مهاجرته حتى توفيت .

*

بعد ذلك ننظر الرسول في مواضع الخطر فنجده سبَّاقاً مقداماً . لقد فزع أهل المدينة ذات ليلة من جَرَّاء صوت سمعوه ، فانطلق أناس قِبَل الصوت يستطلعون الخبر ، فتلقاهم رسول اللّه راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة عرى فى عنقه السيف وهو يطمئنهم ويقول : « لم تراعوا » .

وفى المواقف الحرجة من المعارك يصمد الرسول ويثبت حتى يستعيد المؤمنون المقاتلون الموقف . قال علىّ - وهو الفارس المغوار - : كنا إذا اشتد الحرب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول اللّه ، فما يكون أقرب إلى العدو منه .

وفى الموقف الصعب يوم أُحد جُرِحَ وجه الرسول وكُسِرَت رباعيته وكُلِمَت شفته وسال الدم على وجهه لكنه ثبت ولم يبرح مكانه ولم يبق معه آنذاك إلا إثنا عشر قُتِلَ منهم سبعة وبقى الخمسة .

وفى الموقف الصعب يوم حُنين تعرَّض المسلمون لكمين أصابتهم فيه السهام والرماح فولّوا مدبرين ، بينما ثبت رسول اللّه وهو راكب بغلته يدعو أصحابه إلى الثبات ويقول : « إلىَّ عباد اللّه ، إلىّ أنا رسول اللّه » . ثم يعلن عن نفسه فى مواجهة الأعداء ويقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » . وما هى إلا فترة استعاد بعدها المسلمون زمام الموقف فهزموا المشركين ووقع فى أيديهم أسرى كثيرين .

*

وإذا كنا فى الحرب ومواضع الخطر نجد الرسول قوى العزم جبار البأس ، فإنّا واجدوه مع الأطفال والضعفاء ، رقيق المعشر يمزح معهم ويداعبهم ، بَيْدَ أنه لا يقول إلا صدقاً . قال أنس : كان رسول اللّه من أفكه الناس مع صبى . وجاء مرة رجل يسأله دابة تحمله ، فقال له الرسول : « إنا حاملوكَ على ولد ناقة » . فقال : يا رسول اللّه ، ما أصنع بولد ناقة ؟

فقال له الرسول : « وهل تلد الإبل إلا النوق » .

وكان رجل من البادية اسمه زاهر يتردد على الرسول وقد عُرِفَ بدمامة خِلْقته، وجده الرسول يوماً يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه (مداعباً) والرجل لا يبصره . فقال : أرْسِلْنى ، مَن هذا ؟ فالتفت ، فعرف النبى ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى حين عرفه . وجعل النبى يمزح معه ويقول : « مَن يشترى العبد » ؟ فقال : يا رسول اللّه ، إذن واللّه تجدنى كاسداً . فقال رسول اللّه : « لكن عند اللّه لستَ بكاسد » .

وقال أنس وقد خدم الرسول عشر سنين : أرسلنى يوماً لحاجة فقلتُ واللّه لا أذهب . فخرجتُ حتى أمر على صبيان وهم يلعبون فى السوق ، فإذا رسول اللّه قد قبض بقفاى من ورائى .

فنظرتُ إليه وهو يضحك فقال : « يا أنيس [1] ، ذهبتَ حيث أمرتُكَ » ؟

فقلت : نعم ، أنا ذاهب يا رسول اللّه .

وقال بعض صحابة النبى إليه : يا رسول اللّه ، إنك تداعبنا . قال : « إنى لا أقول إلا حقاً » .

*

وقد عُرِفَ عن النبى عفة لسانه فى المواقف التى ترضيه والتى لا ترضيه ، فلم يشتهر بتوبيخ مَن حوله وتعنيفهم ، أو ما من شأنه أن يصدهم ويُفقدهم الثقة فى أنفسهم . ولم يُسمع عنه أنه قال لهم : « يا قليلى الإيمان » أو « يا أغبياء » ، أو « إلى متى أحتمل غباوتكم وقساوة قلوبكم » أو شيئاً من هذا التقريع .

إن الأناجيل تمتلىء بأقوال من هذا النوع تُنسَب للمسيح وهو يتحدث إلى تلاميذه وحوارييه ، كما تمتلىء بحملاته العنيفة على اليهود والتنبؤ لهم بالهلاك فى جنهم .

---

(١) لاحظ المداعبة فى قوله : « أنيس » بدلاً من « أنس » .

ولقد كانت هذه المواقف وأمثالها موضع تعليقات شتّى من علماء المسيحية . ومثال ذلك قول **جورج ويلز - الأستاذ بجامعة لندن** - فى دراسة له عن المسيح :

« إن مثل هذا الموقف من المسيح يجعل من النادر وصفه بأنه متسامح مع أعدائه .

فبينما هو يمنع القدح والذم : « مَن قال يا أحمق ، يكون مستوجب نار جهنم » (متى ٥ : ٢٢) ، نجده ينغمس فى ذلك ويأخذ كامل حريته فى الذم : « أيها الجهال والعميان » (متى ٢٣ : ١٧) ، « يا غبى هذه اللّيلة تطلب نفسك منك » (لوقا ١٢ : ٢٠) .

ولقد علّمنا أن نحب جيراننا ، بل وحتى أعداءنا ، ولكنه بالرغم من ذلك يتوعد الكتبة والفريسيين ويصفهم بأنهم مراءون وحيّات وأفاعى .

(متى ٢٣ : ٢٩ ، ٣٣)

وإذا نحينا جانباً إخفاق المسيح فى الحفاظ على المعيار ، فإنه لم يدافع بثبات عن أى معيار متناسق .. فبينما يقول عن الناموس : « مَن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعَى أصغر فى ملكوت السموات » ، نجده بعد هذا القبول الصريح لناموس موسى ، يجنح سريعاً لإحداث تغييرات كبيرة فيه .

إن ناموس موسى يسمح بالطلاق ، لكن المسيح يمنعه إلا فى حالة الزنا .

وكذلك يسمح الناموس بحلف الأيمان ، لكن المسيح يمنعه .

ويسمح الناموس بالقصاص : عين بعين ، وسن بسن ، لكنه يمنع القصاص أيضاً » (١) .

لقد كان الرسول إذا بلغه عن رجل شىء ، لا يقول : ما بال فلان يقول .. ولكنه كان يوجه خطابه بصورة عامة يستر فيها صاحب السقطة ويعطيه الفرصة ليستقيم أمره وذلك بقوله : « ما بال أقوام يقولون كذا ، وكذا ... » .

---

(١) G.A. Wells : The Jesus of the Early Christians , PP. 61, 64 .

وكان يقول : « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً (سيئاً) إنى أُحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » . وكل هذه الرقة وهذه التربية النفسية مع قوم طبعت عليهم البيئة من قسوتها الشىء الكبير .

قال أنس : كنت أمشى مع النبى وعليه بُرْد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذاً شديداً حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول اللّه وقد أثّرت بها حاشية البُرْد من شدة جبذته .

ثم قال : يا محمد ، مر لى من مال اللّه الذى عندك .

فالتفت إليه رسول اللّه فضحك ، ثم أمر له بعطاء .

*

ويطول بنا الحديث فى خصائص رسول اللّه دون أن نستقصيها ، على أن ما نطمع فيه هو أن نُعطَى الفرصة مرة أخرى لنزيد فيها .

* * *

معجزات الرسول

لو سُئِلَ مسلم عن معجزات الرسول لقال : معجزته القرآن .

بهذه الإجابة البسيطة قال المسلم حقاً وأجاب صدقاً . فالقرآن بما فيه - وما فيه كثير وكثير - يغنى عن تلمس أى برهان أو البحث عن معجزة أخرى غيره .

لكن الفكرة الشائعة فى أذهان البَشر عن المعجزة تدفعهم بداءة إلى توقع الحديث عن أعاجيب وخرق لقوانين الطبيعة ، وهو ما سوف نصطلح على تسميته **بمعجزات الحوادث** باعتبارها تمثل أحداثاً شغل كل منها حيزاً محدداً من الزمان والمكان .

ومن المعلوم أن وقوع معجزات الحوادث - على شاكلة ما تذكره أسفار العهد القديم ، وأسفار العهد الجديد - ليس قرينة كافية على صدق النبى . فقد حذّرت التوراة من إمكانية حدوث معجزات مادية على أيدى أنبياء كذبة يدعون إلى غير توحيد اللّه ، فقالت تعليماً من اللّه :

« **إذا قام فى وسطك نبى أو حالِم . وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها ، قائلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى .. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالِم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم .. وذلك النبى أو الحالِم ذلك الحلم يُقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم** » .

وكذلك حذَّر الإنجيل على لسان المسيح من أولئك الذين يُحسَبون مسيحيين ويأتون بمعجزات تثير عجب الناس وتستولى عليهم ، لكنهم فى حقيقة الأمر كَذَبة وإخوة للشياطين . وفى هذا يقول :

« ليس كل مَن يقول : يارب ، يارب ، يدخل ملكوت السموات ، وكثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب ، يارب **أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة .**

فحينئذ أُصرِّح لهم : إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم » (متى ٧ : ٢١ - ٢٣) .

وكذلك بيَّن المسيح أن صدق النبوَّة لا يُشترط ارتباطها بحدوث الأعاجيب ، فهذا يحيى بن زكريا الذى قال فى حقه :

« **ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبياً ؟ نعم أقول لكم ، وأفضل من نبى** » .

ويشهد الإنجيل بأن يحيى هذا « **لم يفعل آية واحدة** » .

(يوحنا ١٠ : ٤١)

ومع ذلك فإن دراسة معجزات الرسول تدفعنا إلى الحديث عنها من وجهين :

الأول : معجزات الحوادث على شاكلة معجزات الأنبياء السابقين .

الثانى : معجزة القرآن .

وفيما يلى عرض سريع لبعض ما يُقال فى هذ المجال الواسع .

*

● معجزات الحوادث :

من كتب السيرة : نجد فى كتب السيرة [١] أحاديث عن معجزات وأعاجيب صنعها الرسول وشهدها الناس ، كفاراً ومؤمنين وقد كان بعضها سبباً مباشراً لإيمان مَن آمن منهم - ونذكر فى هذا المجال ما يلى :

١ - دخل أعرابى المسجد يوم جمعة والرسول قائم يخطب ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وتقطعت السُبل ، فادع الله لنا يغيثنا . فرفع الرسول يديه وقال : اللّهم اسقنا (ثلاثاً) ، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسّطت السماء انتشرت ثم أمطرت واستمر الحال على ذلك ستة أيام .

٢ - خرج رسول الله ذات يوم مع جمع من أصحابه فلما حضرت الصلاة لم يجد القوم ما يتوضأون به . فقالوا : يا رسول الله ، ما نجد ما نتوضأ به ، ورأى فى وجوه أصحابه كراهية ذلك . فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير ، فأخذ نبى الله فتوضأ منه ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال : « هلموا فتوضأوا » ، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء . وكانوا أكثر من سبعين .

٣ - لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا ؟ فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله قد هَمّ أن يأذن لهم فى نحر بعض ظهورهم (التى يركبونها) قال : يا رسول الله ، كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً ؟ ولكن إن رأيتَ يا رسول الله أن تدعو لنا ببقايا أزوادهم وتجمعها ثم تدعو الله فيها بالبركة فإن الله سيبارك لنا فى دعوتك .

فدعا النبى ببقايا أزوادهم فجعل الناس يجيئون بالحبة من الطعام وفوق ذلك فكان أعلاهم مَن جاء بصاع من تمر . فجمعها رسول الله ثم قام فدعا ما شاء الله أن يدعو ، ثم دعا الجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحتثوا فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملأوه .

---

(١) راجع البداية والنهاية - لابن كثير - الجزء السادس .

٤ - أتى النبى رجل من بنى عامر فقال : يا رسول اللّه ، أرنى الخاتم الذى بين كتفيك فإنى من أطب الناس . فقال له رسول اللّه : « ألا أريك آية » ؟ قال : بلى ، قال : فنظر إلى نخلة فقال : « ادع ذلك العِذق » . فدعاه فجاء ينقز بين يديه . فقال له رسول اللّه : « ارجع » فرجع إلى مكانه . فقال العامرى : يا آل بنى عامر ، ما رأيت كاليوم رجلاً أسحر من هذا !

٥ - كان فى المسجد جذع نخلة يسند رسول اللّه ظهره إليه إذا كان يوم جمعة أو حدث أمر يريد أن يُكَلِّم الناس فيه فقالوا : ألا نجعل لك يارسول اللّه شيئاً كقدر قيامك ؟

قال : « لا عليكم أن تفعلوا » . فصنعوا له منبراً ثلاث مراق . فلما جلس عليه ، خار الجذع كما تخور البقرة ولم يسكن إلا بعد أن التزمه الرسول ومسحه .

٦ - أبصر رسول اللّه بشر ابن راعى العير وهو يأكل بشماله ، فقال : « كُلْ بيمنك » . قال : لا أستطيع (ليس عن عجز وإنما تكبراً) قال : « لا استطعتَ » . فَشُلَّت يده وما وصلت إلى فِيهِ بعد ذلك .

٧ - قال حبيب بن أساف : أتيتُ رسول اللّه أنا ورجل من قومى فى بعض مغازيه ، فقلنا : إنا نشتهى أن نشهد معك مشهداً . قال : « أسلمتم » ؟ قلنا : لا ، قال : « فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » . قال : فأسلمنا . وشهدتُ مع رسول اللّه فأصابتنى ضربة على عاتقى فجافتنى فتعلقت يدى . فأتيتُ رسول اللّه ، فتفل فيها وألزقها ، فالتأمت وبرأت ، وقتلتُ الذى ضربنى .

٨ - أتى جابر بن عبد اللّه إلى رسول اللّه فعرف فى وجهه الجوع . فرجع إلى منزله فذبح داجناً كانت عندهم وطبخها وثرد تحتها فى جفنة وحملها إلى رسول اللّه . فأمره أن يدعو له الأنصار فأدخلهم عليه أرسالاً ، فأكلوا كلهم وبقى مثل ما كان ، وكان رسول اللّه يأمرهم أن يأكلوا ولا يكسروا عظماً . ثم إنه جمع العظام فى وسط الجفنة فوضع عليها يده ، ثم تكلم بكلام لا أسمعه إلا أنى أرى شفتيه تتحرك ، فإذا الشاة قد قامت تنفض أُذنيها .

فقال : « خذ شاتك يا جابر ، باركَ اللّه لك فيها » . قال : فأخذتُها ومضيتُ وإنها لتنازعنى أُذنها حتى أتيتُ بها البيت . فقالت لى المرأة : ما هذا يا جابر؟ فقلت : هذه واللّه شاتنا التى ذبحناها لرسول اللّه دعا اللّه فأحياها لنا . فقالت : أنا أشهد أنه رسول اللّه ، أشهد أنه رسول اللّه ، أشهد أنه رسول اللّه .

٩ - وحدث يوم أُحد أن سالت عين قتادة بن النعمان على خده ، فأخذها الرسول فى كفه وأعادها إلى مقرها فاستمرت بحالها وبعدها .

وحدث يوم خيبر أن نفث فى عينى علىّ وهو أرمد ، ومسح رِجْل سلمة بن الأكوع بعد أن أُصيبت ، فبرئت الأعضاء المصابة جميعاً لساعتها .

*

● **من القرآن الكريم** : نذكر هنا بعضاً مما اصطلحنا على تسميته . بمعجزات الحوادث وجاء ذكرها فى القران . ومن هذه المعجزات :

١ - **الإسراء والمعراج** : وقد سجَّل القرآن حادث الإسراء فى سورة عُرِفَت باسمه تُستفتح بالقول الكريم : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ المَسْجِد الحَرَامِ إِلَى المَسْجِد الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (الإسراء : ١) .

وقد حدث فى صبيحة الإسراء أن صلّى رسول اللّه الصبح ثم قال لابنة عمه : « يا أُم هانئ ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئتُ بيت المقدس فصليتُ فيه ثم صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما ترين » . وقال الرسول لابنة عمه : « وأنا أُريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت » . فأشفقت عليه أم هانىء من تكذيب قومه وأخذت بثوبه قائلة : إنى أُذكِّرك اللّه أنك تأتى قومك يُكَذِّبونك وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطو بك . قالت : فضرب ثوبه من يدى ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم ما أخبرنى .

وقالت عائشة : لما أُسْرِىَ برسول اللّه إلى المسجد الأقصى ، أصبح يُحَدِّث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر

فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أُسْرِىَ به اللَّيلة إلى بيت المقدس . فقال: أوَ قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أفتُصدِّقه أنه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح . قال : نعم . إنى لأُصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أُصدِّقه فى خبر السماء .

وتذكر كتب السيرة أن رسول اللّه التقى ليلة الإسراء بعدد من الأنبياء وخاصة أصحاب الرسالات الكبرى ومنهم موسى . وفى هذا تقول سورة السجدة ٢٣ - حسب رأى المفسرين [١] : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِه ﴾ . وهذا يعنى - قياساً - أن يلتقى محمد خاتم النبيين بكل مَن أُوتِىَ كتاباً من الأنبياء والمرسلين ومنهم إبراهيم [١] وداود وعيسى . وهنا نذكر ميثاق اللّه مع النبيين فى عالَم الحقيقة : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِه وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران : ٨١ - ٨٣) .

هذا عن حادث الإسراء ، وأما حادث المعراج فقد سجَّلته سورة النجم فى قولها :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَىٰ ﴾ (النجم : ١٣ - ١٨) .

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) يذكر القرآن الكريم صحف إبراهيم فى قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى : ١٨ - ١٩) وكذلك ما جاء فى سورة النجم ٣٦ - ٣٧

وهنا وقفة نستمع فيها إلى حديث يعتبر - فى نظرى - من أهم ما روته عائشة أم المؤمنين من أحاديث . ويروى هذا الحديث عنها مسروق ، قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : ثلاث مَن تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على اللّه الفِرْية . قلت ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمداً - ﷺ - رأى ربه فقد أعظم على اللّه الفِرْية .

قال : وكنتُ متكئاً فجلستُ فقلت : يا أم المؤمنين ، أنظرينى ولا تعجلينى . ألم يقل اللّه عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ؟ (٢) .

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول اللّه - ﷺ - فقال : « إنما هو جبريل . لم أره على صورته التى خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين . رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض » .

فقالت : أوَ لم تسمع أن اللّه يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى : ٥١) .

قالت : ومَن زعم أن رسول اللّه كتم شيئاً من كتاب اللّه ، فقد أعظم على اللّه الفِرْية ، واللّه يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

قالت : ومَن زعم أنه يُخْبِر بما يكون فى غد ، فقد أعظم على اللّه الفِرْية ، واللّه يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . (النمل : ٦٥) (٣)

---

(١) التكوير : ٢٣ (٢) النجم : ١٣

(٣) اقرأ أيضا قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الآية . ٥) .

قالت : : ولو كان محمد - ﷺ - كاتماً شيئاً مما أُنْزِلَ عليه - لكتم هذه الآية :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب : ٣٧) .

بقى أن نذكر عدداً من الملاحظات على معجزة الإسراء والمعراج :

(١) كلتاهما آية من آيات الله جاءت للرسول شخصياً ، بدليل قوله عن الإسراء : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ (الإسراء : ١) . وقوله عن المعراج : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (النجم : ١٨) .

ولنا بعد ذلك أن نقول : إن الله - جلت حكمته ، أراد أن يخفف من أحزان الرسول ، ومعاناته بسبب تكذيب قومه إياه وإيذائه ومَن اتبعه من المسلمين وما تعرَّضوا له من حرب نفسية واقتصادية وعذاب بدنى ، فكان الإسراء والمعراج حتى ترتفع نفس الرسول فوق تلك المحن والآلام ، ومن ثَمَّ يستطيع أن يرفع معنويات أتباعه ويبث فى أنفسهم الطمأنينة والثقة في خير العاقبة .

وكان الإسرء والمعراج تعليماً للرسول وإطلاعاً له على الملكوت حتى ينبىء عن عوالم الغيب بحديث اليقين . فالقاعدة التى دَرَجَ الناس عليها أن يكون مستوى المعلِّم أرقى من مستوى تلاميذه ، وكذلك الأنبياء جاءوا معلِّمين للبَشرية فلا شك أن مستواهم يجب أن يكون - وإنه لكذلك - أكبر وأرقى من مستوى الناس جميعاً .

(٢) والمسلم ملتزم بالإيمان بمعجزة الإسراء والمعراج لكونها مسجَّلة فى القرآن على هذا النحو البيِّن ، ولا عليه بعد ذلك أن يذكر المنطق الرياضى الذى استخدمه أبو بكر فى البرهنة على صدق الحادث ، وذلك حين لجأ إلى باب القياس فقال : « إنى لأُصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أُصدِّقه فى خبر السماء » . وما يترتب على ذلك هو أن يُصدِّق المؤمن - كل مؤمن - الرسول فى كل ما يقول .

(٣) ليس عجيباً أن يرتد نفر عن الإيمان بالرسول بعد حديث الإسراء ، فتاريخ الرسالات الكبرى ملىء بأمثال هؤلاء الذين بقيت نفوسهم تعانى من صغار عاقها عن الارتفاع إلى مستوى الأحداث ، واستمرت تقيس الأمور بمقاييس قاصرة أو خاطئة أدى بها ذلك إلى التمرد على الرسول والكفر برسالته .

لقد فعل بنو إسرائيل شيئاً من ذلك مع موسى - على الرغم من الآيات والأعاجيب التى صنعها فى وسطهم - فبعد أن فَكَّ أسرهم من قبضة فرعون وطوَّف بهم فى سيناء قاصداً فلسطين يريد اقتحامها ، تخاذلت الجماعة الإسرئيلية عندما علمت بقوة سكان الأرض « وبكى الشعب تلك اللَّيلة وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بنى إسرائيل ، وقال لهما كل الجماعة : ليتنا متنا فى أرض مصر .. لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف .. أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر . فقال بعضهم لبعض : نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر» (العدد ١٤ : ١ - ٤) .

وبعد ذلك نظَّم لفيف من الإسرائيليين مقاومة لزعامة موسى تريد التمرد عليه والانتكاس فى حركته التحريرية وتعمل من أجل العودة لمصر وكان على قيادة هذه الحركة « قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى ، وداثان وابيرام أبنا اليآب .. يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوى اسم . فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما : كفاكما . إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب .

فأرسل موسى ليدعو داثان وابيرام ابنى اليآب فقالا : لا نصعد . أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبناً وعسلاً (أرض مصر) لتميتنا فى البرية حتى تترأس علينا ترؤساً . كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم . هل تقلع أعين هؤلاء القوم . لا نصعد » .

(العدد ١٦ : ١ - ١٤)

وحدثت رِدَّة لكثير من تلاميذ المسيح ومريديه حين سمعوا بعض أحاديثه . وفى هذا يقول الإنجيل : « قال كثيرون من تلامذيه إذ سمعوا أن هذا الكلام صعب : مَن يقدر أن يسمعه . فعلم يسوع فى نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا فقال لهم : أهذا يعثركم . ! ..

من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه (ولم يبق معه إلا الإثنا عشر) فقال يسوع للاثنى عشر : ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا » .

ولا ننسى رِدَّة يهوذا الذى ائتمنه المسيح فجعله أمين سره وعيَّنه أميناً لصندوق الجماعة فقد « كان الصندوق عنده وكان يحمل ما يُلْقَى فيه » .

(يوحنا ١٢ : ٦)

ثم تآمر على سيده ، بَيْدَ أن خيانته ارتدت عليه فلقى جزاءه .

ليس عجيباً - إذن - أن يرتد نفر عن الإيمان بالرسول فى أعقاب حادث الإسراء الذى كان للرسول آية ، وللمؤمنين به تمحيصاً واختباراً .

*

٢ - وحين هاجر الرسول برفقة صاحبه أبى بكر من مكة إلى المدينة كان اتجاههما فى أول الرحلة إلى الجنوب - فى طريق اليمن - حتى تضل قريش وهى تقتفى أثرهما ، وكان غار ثور أول محطة لهما .

لكن ذلك لم يُثن قريشاً عن ابتعاث فتيانها فى كل اتجاه يطلبون الرسول حياً أو ميتاً ، وكان منهم مَن اقترب من ذلك الغار وهناك لقوا راعياً سألوه فكان جوابه : قد يكونان بالغار .. وآنذاك شعر أبو بكر بالخطر يُطْبِق عليهما فتصبب عرقاً وقال للرسول : لو نظر أحدهم تحت قدمية لرآنا . فأجابه الرسول : « يا أبا بكر ، ماظنك باثنين اللّه ثالثهما » .

لقد ذهب أحد القرشيين يتسلق إلى الغار ، ثم ما لبث أن عاد أدراجه . ولما سأله أصحابه عن سبب نكوصه قال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، وحمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفتُ أن ليس فيه أحد - وهناك ارتد فتيان قريش خائبين .

لقد قضى الله - جلت حكمته - أن يعصم محمداً من الناس ويحفظه حتى يُكمل الرسالة فقام جند الله يُنَفِذُون المشيئة الإلهية ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر : ٣١) .

لقد عهد إلى الملائكة بإنجاح عملية الهجرة وتأمينها ضد كل محاولات الإحباط التى قد يقوم بها العدو ، فنجحت العملية بأمر الله ، وسجَّل القرآن ذلك الحدث الخطير فقال مُذكِّراً المؤمنين : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٤٠) .

٣ - بعث رسول الله رجلاً يستدعى له طاغية من فراعين العرب ، فقال الرجل : يا رسول الله ، إنه أعتى من ذلك ، قال : « اذهب فادْعُه لى » . فذهب الرجل إلى الطاغية وقال له : يدعوك رسول الله .

قال : وما الله ؟ أمن ذهب هو أو من فضة أو من نحاس ؟ فرجع الداعية إلى رسول الله وقال له : قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال لى : كذا ، وكذا . فقال رسول الله : « ارجع إليه الثانية فادعه » . فعاد الداعية إلى الطاغية فأعاد عليه هذا مثل الكلام الأول .

وتكرر ذلك الموقف للمرة الثالثة والطاغية يرفض الحضور عند رسول الله ويجادل هزؤاً واستخفافاً ، وبينما هو يتحدث إلى الداعية ويزيد فى المراء جاءت إليه سحابة حيال رأسه ، فرعدت ووقعت منها صاعقة ذهبت بقحف رأسه .

ونزل القرآن يقول : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ (الرعد : ١٣) .

٤ - كذلك تدخلت الملائكة فى غزوة بدر التي كانت أول المعارك الحاسمة فى تاريخ الإسلام وأعظمها خطراً ، وسجَّل القرآن ذلك الحادث الجليل فقال :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْف مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ *

إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال : ٩ - ١٢) .

٥ - وكذلك تدخلت قُوَى عظمى فى غزوة الأحزاب وكان للملائكة عمل حاسم نصر المسلمين آنذاك بعد موقفهم المتدهور . وفى هذا يقول القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً .. ﴾ (الأحزاب : ٩ - ١١) .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ (الأحزاب : ٢٥) .

إن تدخل الملائكة وغيرها من القُوَى التى لم يتعود على إدراكها البَشر يعنى حدوث معجزة وآية وعجيبة ، وهذه جميعها مرادفات للقوَّة حسبما اصْطُلِحَ عليها فى الكتاب المقدس .

هذا .. وبعد أن عرضنا شيئاً من معجزات الحوادث باعتبارها عجائب أيَّدَ اللَّه بها رسوله ، ننتقل الآن للحديث عن المعجزة الخالدة : معجزة القرآن .

* * *

● معجزة القرآن :

ماذا أقول فى معجزة القرآن ...

هل يمكن أن يأتى الحديث عن الإعجاز القرآنى مندرجاً تحت موضوع فرعى من جملة موضوعات يشتمل عليها واحد من فصول هذا الكتاب ؟

كلا ... فالأمر أكبر من ذلك .

بَيْدَ أنى سأحاول أن أقول كلمات متفرقات تشير إلى ملامح هذا البحر الزاخر ، لعلها تُعين على رسم صورة - ولو من بعيد - لحقيقة معجزة القرآن .

*

المعجزة وسيلة لا غاية ... هكذا يشهد تاريخ الرسالات .

فهى وسيلة تُعين على الإيمان باللّه ورسالاته حتى إذا آمن الناس التزموا بالمنهج الإلهى الذى يضمن لهم الخير فى الدنيا والآخرة .

لقد كان عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام على تلك الحال المعروفة وأقل ما يقال فى أمرهم أنهم كانوا على هامش الحياة ، فلما جاءهم القرآن وأسلموا للّه وتمسكوا بمنهاجه ، أحيا اللّه مواتهم فطلعوا على العالمَ بحضارة قوامها الدين والدنيا ، وكان لهم من جِماع الأمر ما أذهل العالم ولا يزال - حتى الآن .

يقول فيليب حتى : « لو قام فى الثلث الأول من القرن السابع الميلادى أحد وتكهن بأن دولة خامدة الذكر وضيعة الجانب تخرج من مجاهل جزيرة العرب ، ثم تنقض على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقوِّض الدولة الواحدة - دولة آل ساسان - وتظفر بأملاكها ، ثم تقطع من ولايات الثانية - بيزنطة - أزهى مقاطعاتها ، نقول : لو صدرت مثل هذه النبوءة من فم إنسان ذلك العصر لَحُكِمَ عليه بالجنون .

والواقع أن هذا ما حدث فعلاً . فبعد الرسول تغيَّرت طبيعة بلاد العرب الجدباء ، وأخذت تُنشىء رجالاً أبطالاً يندر وجود مَن يشاركهم فى أى صِقع

كان ، فكأن أعجوبة حلّت فيها .. **إن عظمة الجيش العربى لم تقم على قوة السلاح أو جودة التنظيم ، بل كان ثمرة القوة المعنوية الروحية التى كان الإيمان والدين قد عززاها فى نفسه ..**

لقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب .. ولقد انفتح أمام الأمم المغلوبة باب الحرية فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون إزعاج » [1] .

لقد أثبتت المعجزة نفسها ولم تعد فى حاجة إلى برهان .

ومع ذلك سوف نتحدث عن شىء من أوجه الإعجاز القرآنى .

*

معجزات يس

نفرض أن العالَم لم يعرف إلا كتاباً مقدساً واحداً جاء به مَن يقول للناس إنه رسول اللّه ، فالناس المسئولون أمامه صنفان : مؤمن به ومُصدِّق له ، أو كافر به ومُكذِّب له . فإذا وجدنا طائفة من الناس تنتمى للصنف الأول فلا حاجة لهم إذن بالحديث عن معجزات النبى وكتابه فلقد آمنوا به وانتهى الأمر . وأما الصنف الثانى من الناس - وهم الكفار والمُكذِّبون - فهؤلاء فى موقف يقتضى بيان إعجاز الكتاب ومعجزات النبى حتى يكونوا على بَيِّنة من الأمر ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [2] - و ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [3] . فالأمر جد خطير لأنه يتعلق بمصير الإنسان الأبدى .

ومما لا شك فيه أن هناك نوعاً من المعجزات يجب تنحيته جانبًا عند البرهنة على أن هذا الكتاب أو ذاك إنما هو وحى اللّه الذى نزل من السماء ، وأعنى هنا

---

(١) تاريخ العرب - تأليف الدكتور فيليب حتى وآخرين (جامعة برنستون) - مترجم عن الإنجليزية . دار الكشاف - بيروت - ١٩٤٩ ص - ١٩٣ ، ٢٣١ .

(٢) الأنفال : ٤٢ (٣) النساء : ١٦٥

ما اصطلحنا على تسميته بمعجزات الحوادث . وما ذلك إلا لكونها أحداثاً شغلت حيزاً من المكان والزمان وكانت حُجة على مواقعيها ومَن كانوا شهوداً لها ، ثم انقضى أمرها وصارت ماضى يستطيع العقل البَشرى فى مختلف العصور اللاحقة لعصرها أن يُثير حولها من الشبهات والأضاليل ما يجعلها حَجَر عثرة فى طريق الإيمان ، بدلاً من أن تكون وسيلة تُعين عليه .

وننتقل من الإجمال إلى التفصيل فنفرض أنه التقى مجموعة من الداعين إلى أديانهم فى حديقة عامة - ولتكن حديقة هايدبارك بلندن - ثم قام كل منهم يعرض على جمع من الملاحدة دينه معتمداً أولاً وأخيراً على معجزات الحوادث - فماذا يقولون ؟

يقول اليهودى : منذ ٣٣ قرناً مضت وقف موسى وهارون أمام فرعون مصر « وطرح عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً . فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسَحرة .. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصا موسى ابتلعت عصيهم » .

ومنذ ٢٨ قرناً أحيا إيليا ابن المرأة الأرملة حين صلّى « إلى الرب وقال : يا رب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش » .

إن دين اليهودية هو دين اللّه الحق !

ويقول المسيحى : منذ أكثر من ١٩ قرناً قدّموا للمسيح « مجانين كثيرين فأخرج الأرواح بكلمة وجميع المرضى شفاهم » .

وجاءه « واحد من رؤساء المجمع اسمه بايروس .. قائلاً : ابنتى الصغيرة على آخر نسمة . ليتك تأتى وتضع يدك عليها لتشفى .. فجاء إلى بيت رئيس المجمع .. وقال لهم : لم تمت الصبية لكنها نائمة .. وأمسك بيد الصبية وقال لها : طليثا قومى .. وللوقت قامت الصبية ومشت » .

إن دين المسيحية هو دين اللّه الحق !

ويقول المسلم : منذ ١٤ قرناً أُصيبت عين قتادة بن النعمان فى غزوة أُحد فسالت حدقته فردها محمد رسول اللّه إلى موضعها ، فكان قتادة لا يدري أيهما أصيبت إذ قد شفيت عينه تماماً .

وذبح جابر بن عبد اللّه داجناً كانت فى منزله وطبخها ثم حملها إلى رسول اللّه فأمره أن يدعو الأنصار فأدخلهم عليه أرسالاً فأكلوا كلهم ، وكان رسول اللّه يأمرهم أن يأكلوا ولا يكسروا عظماً . ثم إنه جمع العظام فى وسط الجفنة فوضع يده عليها ثم تكلم بكلام خفيض فإذا الشاة قد قامت تنفض أُذنيها . فقال الرسول : « خذ شاتك يا جابر ، باركَ اللّه لك فيها » .

إن دين الإسلام هو دين اللّه الحق .

إذا حدث ذلك وقدَّم الداعون أديانهم إلى الناس اعتماداً على تلك الحوادث فما هى النتيجة ؟ إن النتيجة المؤكدة لذلك هى الرفض : رفض الدعوة والاستماع للداعين .

والحق أن هذا المشهد الذى تصورناه قد حدث شىء منه أمام كاتب هذه السطور ، وكان ذلك فى يوم سبت من شتاء عام ١٩٦٤ حين وقف قِس مسيحى فى أحد الشوارع القريبة من حديقة هايدبارك ومعه نسخة من الكتاب المقدس وسلم خشبى مزدوج اعتلاه وبدأ يُقَدِّم موعظة للسامعين تذكر بعض معجزات الحوادث وتردد أفكار بولس . فانبرى له من الحاضرين شاب إنجليزى جامعى ، اشتبك معه فى حوار ساخن وكان مما قاله الشاب : دع ما فى الكتاب وحدثنى عما تُقَدِّمه لى الآن .

إن ما فى الكتاب شىء انتهى منذ زمان ، أما اليوم فماذا تقول لى ؟

وتدخل بعض الحاضرين فى الحوار الذى لم يلبث أن تحوّل إلى معركة كلامية عنيفة بين البروتستانت والكاثوليك استُخدمت فيها أقسى الشتائم والألفاظ الجارحة !

نعم .. إن الحديث عن معجزات الحوادث هو حديث عن الماضى الذى ولّى وغـاب ، وهو حديث لا يُقَدِّم برهاناً لإيمان المحدَثين ، لكنه يأتى نتيجة لإيمانهم الذى يبدأ حين يروا الآيات حاضرة بين أيديهم .

*

والآن .. ماذا نقرأ فى القرآن الكريم ؟

يقول الحق تقريراً عن الحاضر ، الآن وكل آن :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ (سبأ : ٦) .

ويقول الحق تقريراً عن المستقبل وهو لم يزل بعد بظهر الغيب إلا أنه فى زمن ما سيكون حاضراً يعيشه الناس :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣)

﴿ وَقُلِ الحَمْدُ للَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل : ٩٣) .

وبين **ياء المضارع** فى كلمة « يرى » **وسين المستقبل** فى كلمتى « سنريهم » و « سيريكم » نشهد آيات الله رأى العين ونتيقنها ملء العقل والبصيرة . ومن حقنا الآن أن نقول : **إن معجزات ياسين هى** معجزات كل العصور ومن بينها العصر الحديث . ولا علينا بعد ذلك إذا كتبناها هكذا : **معجزات يس** .. ثم لننظر الآن بعضاً من هذه المعجزات التى نكتفى بذكر ثلاثة أوجه منها فقط يستطيع الإنسان مشاهدتها فى القرآن الكريم وهى : الإعجاز العلمى - التحدى بالغيب - ثم القرآن والكتب المقدسة السابقة - وفيما يلى عرض مجمل لكل من هذه الوجوه .

* *

١ - الإعجاز العلمى فى القرآن

كلمة عن الإعجاز اللُّغوى : مضى أكثر من ألف عام والباحثون فى إعجاز القرآن يرون له أوجهاً مختلفة ، وإن كانت جميعها - فى رأيى - جاءت نتيجة لنظرهم إليه من زاوية واحدة هى لغة القرآن وما تشتمل عليه من ألفاظ ومعانى ونَظْم . فالقرآن كلام من جنس كلام العرب ولكن قوته الإلهية فعلت بهم الأعاجيب إذ أحيتهم بعد موات وأخرجتهم من ظلمات شتَّى إلى نور الحق والحياة .

وإذا كانت عصا موسى واحدة من أفرع شجرة زيتون أو رمان ، قطعها يوماً ليتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ، فإذا بها تتحوَّل بعد الرسالة فى يده إلى شىء آخر مُعْجِز : حية تسعى ، وقوة تفلق البحر فتضرب به طريقاً يبساً ، وتُفَجِّر من الحجارة أنهاراً - فهكذا يمكن القول عن كلام القرآن بأن إعجازه الحقيقى يكمن فى فيضه الإلهى الذى غلب العرب على أمرهم - وهم أهل الكلام - فأخذهم بروعته وأصاب منهم لُباب الأفئدة ومجامع الأحاسيس .

*

ولقد وُفِّقَ قدامى الباحثين فى بيان أوجه الإعجاز اللُّغوى للقرآن وكان من أمثلة ما قالوه فى إعجاز نَظْمه ما عرضه عبد القاهر الجرجانى - المتوفى عام ٤٧١ هـ - فى الآية رقم (١٠٠) من سورة الأنعام التى تقول :

﴿ وَجَعَلُواْ للَّه شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

يقول عبد القاهر : « ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة ومأخذاً فى القلوب .. إنك لا تجد شيئاً منه إذا أخَّرْتَ فقلتَ : وجعلوا الجن شركاء للّه ..

والسبب فى ذلك .. هو أن للتقديم هنا فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير . وبيانه : إنَّا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع اللّه وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع

التقديم ، فإن تقديم « الشركاء » يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغى أن يكون له شريك .. لا من الجن ولا من غير الجن » [1] .

*

والذى لا جدال فيه هو أن روعة القرآن كانت هى القوة القاهرة التى غشيت من ألقى إليه السمع من العرب ، فلم يلبث أن استجاب له وتحمل فى سبيله كل أذى وضيق .. والحق يقول فى سورة الأنعام ٣٦ : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ .

ولا تزال روعة القرآن إلى الآن هى سر إلٰهى - يماثل الروح فى الجسد - يفيض على الباحثين عن الحق فيخرون ﴿ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ [2] . ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [3] .

يقول القس السابق إبراهيم خليل فيلبس الذى أعلن إسلامه فى عام ١٩٥٥ : « نصبت راعياً وقسيساً للكنيسة الإنجيلية بباقور محافظة أسيوط سنة ١٩٥٢ فى حفل رائع تحدثت عنه كل الصحف الدينية وقتئذ وذاع نشاطى الدينى بين المرسلين الأمريكيين ولا سيما فى العمل التبشيرى بين المسلمين . وكنت أعتمد فى هذا المضمار على النفوذ الإنجليزى بالبلاد وقتئذ (من سنة ١٩٤٥ - ١٩٥٥) حتى انتدبنى سنودس النيل الإنجيلى للتدريس بكلية اللاهوت بأسيوط لكنيسة نهضة القداسة التابعة للإرسالية الإنجليزية الكندية .

ثم تهافتت علىّ الإرسالية الألمانية السويسرية بأسوان للعمل كسكرتير عام للإرسالية وتم انتدابى فى سنة ١٩٥٤ وهناك قمتُ بعمل تبشيرى سافر فى المنطقة من الدكا بأراضى النوبا إلى إدفو جنوباً . وكان معقل نشاطى مستشفى الجرمانية حيث يتوافد عدد من المسلمين والمسلمات للاستشفاء والعلاج .. كما

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٢٢١ (٢) الإسراء : ١٠٧ (٣) الإسراء : ١٠٩

كانت لى ندوات تبشيرية مع رجالات مسلمى أسوان .. واستطعتُ أن أقوم بنهضات دينية رائعة دعوتُ لها كبار الشخصيات ..

ومن العجب العُجاب أننى فى نشوة انتصاراتى بالعمل التبشيرى وفى فترة إعداد نفسى لنيل درجة دكتوراة فى الفلسفة واللاهوت من جامعة برنستون بأمريكا ، وفى استعدادى وإعدادى للرسالة التى أسميتها « سيف جليات » [١] أردتُ الهجوم على الإسلام بمهاجمة القرآن . **ويشاء الله أن يقهرنى بالقرآن الكريم ليُسمعنى صوته بقوله تعالى** : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ [٢] .

كان لهذه الآية وقع فى نفسى ، إذ جعلتنى أفكر تفكيراً حراً نزيهاً ، وأحسستُ بأن الله الذى علّمنى ما لم أعلم يستطيع أن يجردنى من العلم والمعرفة ويتركنى للذل والهوان . لكن إرادته لهدايتى جعلته يفيض علىّ من أنوار هذه الآية ما أيقظ ذهنى وقلبى ووجهنى إلى إرادته ومشيئته .

والحق أن ما قرره القرآن الكريم هو الصدق اليقينى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ [٣] .

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ [٤] .

« الحمد لله الذى هدانى لهذا ، وما كنتُ لأهتدىَ لولا أن هدانى الله » [٥] .

* *

إن روعة القرآن هى التى فعلت - ولا تزال تفعل الأعاجيب ، ليس فقط بين الذين ورثوا العربية لساناً يتحدثون به ، بل أيضاً بين ذوى الألسنة الأعجمية - غير العربية - الذين إذا سمعوا القرآن يُرَتَّل أو يُتَغنَّى به ، اطمأنت به قلوبهم

---

(١) التسمية مأخوذة من المعركة التى انتصر فيها النبى داود على جالوت .

(٢) الجن : ١ - ٢ (٣) الأنعام : ١٢٥ (٤) الزمر : ٢٢

(٥) الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية - تأليف : إبراهيم خليل أحمد - ص ١٤ - ١٥

وجلسوا بين يديه خاشعين بعد أن شعروا أنه شفاء لما فى صدورهم بصرف النظر عن أسباب تلك الحالة وتعلاّتها .

* *

● **الإعجاز العلمى ليس بمستحدث** : مَن يقرأ قول الحق : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون : ١٢ - ١٤) .

ومن يقرأ قول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصيبُ به مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ (النور : ٤٣) .

ومن يقرأ قول الحق : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، إِنَّ ذَلكَ عَلَى اللَّه يَسيرٌ * قُلْ سيرُواْ فى الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(العنكبوت : ١٩ - ٢٠)

ثم أخيراً - وليس آخراً - مَن يقرأ قول الحق : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٠)

مَن يقرأ بعضَ أو كل هذه المجموعات الأربع من آيات القرآن الكريم - سواء أكان فى عصر العلم الذى نعايشه ، أو فى العصر الذى سبقه منذ قرون - سوف يعلم يقيناً أنها تتحدث عن ظواهر كونية بلغة جديدة على أسماع العالَمين .. لغة العلم الحديث .

لقد لاحَظَ شيوخ المفسِّرين منذ قرون عديدة وجه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم وسجّلوا ذلك فى كتبهم ، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره لقول الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ .

(فصلت : ٥٣)

فقد قال ابن كثير : « سنُظهر لهم » دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند اللّه على رسول اللّه - ﷺ - بدلائل خارجية (فى الآفاق) ودلائل فى أنفسهم .. **ويُحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركّب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى** » .

حين نقول - إذن - إن الإعجاز العلمى للقرآن يمس ما نعرفه من علوم حديثة بمسمياتها مثل علوم : الأجِنّة ، والطبيعة الجوية ، والچيولوچيا ، ونشأة الكون ، وبناء الخلية الحيّة - وهو ما تمثله المجموعات الأربع من الآيات السابق ذكرها على الترتيب ، فإننا فى الواقع لا نأتى بجديد من ناحية الشكل أو الإطار العام ، وإنما الجديد هو المزيد من وضوح الرؤية وتعدد الآيات وتنوعها ، ودقة التفاصيل .

وإذا كان لا يزال يوجد بيننا اليوم نفر من كُتّاب المسلمين الذين يترددون فى الحديث عن الإعجاز العلمى للقرآن إكتفاءً بكونه معجزة أثبتت نفسها بما فعلت فى العرب والعالَم ، فلا شك أن هذا الموقف الجامد لم يعد له ما يبرره بعد أن انفتحت أعين الكثير من العلماء - مسلمين وغير مسلمين - على حقائق من الإعجاز العلمى للقرآن .

*

منذ نحو خمسين عاماً مضت كتب شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغى تقديماً لكتاب « حياة محمد » لمؤلفه الدكتور محمد حسين هيكل وكان مما قاله :

« يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلٰهى لدقائق الوجود ، **وأنا أقرر أيضاً أن العلم والكشف عن سُنَن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين (الإسلامى) وسيُقرّب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان**

غامضاً مبهماً ، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء » (٢) .

*

واليوم يكتب شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود مقالاً عن « موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة » فيقول :

« قد يتساءل إنسان عن نوعية العلم الذى يدعو إليه الإسلام ..

إن العلم الذى يدعو إليه الإسلام هو العلم بالطبيعة والأحياء ، والكيمياء ، والطب وغير ذلك من العلوم المادية ، وهو بالضرورة أيضاً علم الدين ، من تفسير ، وحديث ، وفقه .. وإن الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (٣) إنما وردت فى معرض الحديث عن الكونيات المادية .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ ﴾ وما من شك فى أنه بمقدار تعمق الإنسان فى الجانب العلمى على أساس من الإيمان وفى صدق وإخلاص تكون خشيته لله ؛ إنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان فى الخلق ، ومن الحكمة فى التدبير ما يجعله يسجد لمبدع الكون ومنسقه .

وإن هؤلاء الذين يتصلون مثلاً بعلم التشريح من قرب أو يتخصصون فيه ، يرون من الإحكام المُحْكَم ومن الدقة الدقيقة فى مختلف الأجهزة الجسمية ، وفى

---

(١) فصلت : ٥٣

(٢) الطبعة الثالثة عشر : ص ١٥ ، ١٦ - دار المعارف بمصر .

(٣) فاطر : ٢٨

مفردات هذه الأجهزة ما يضطرهم اضطراراً إلى السجود لرب هذا التنسيق والترتيب والإبداع .

وليس علم التشريح وحده هو الذى يُبهر العالِم المتبحر فيه ، وإنما يُبهر علم الفَلَك العالِم الفلكى .

إنه يرى هذه النجوم التى لا تكاد تُعَد تسير فى هذه السعة الكرنية الهائلة فى ترتيب وتناسق وإحكام ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) .

وعالِم الأحياء وهو يتأمل عوالمه ، ويفاجأ كل يوم بجديد وغريب وبديع فيها . إن هؤلاء جميعاً وغيرهم يجدون أنفسهم لا محالة أمام صنع اللّه الذى أتقن كل شىء صنعاً فيقولون مع القرآن الكريم : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ * الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٢) .

وصدق اللّه إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

لقد أحدث الإسلام فى الدنيا - بموقفه هذا من العلم - نهضة علمية ، كان من ثمارها الحضارة الإسلامية التى كانت تسمى البحوث فى الطبيعة وفى الكون هذه التسمية الجميلة : « العلم بسنن اللّه الكونية » . **فعلم الطبيعة فى الصورة الإسلامية هو العلم بسنن اللّه الكونية** » (٤) .

---

(١) يس : ٤٠ (٢) الملك : ١ - ٤ (٣) فاطر : ٢٨

(٤) مجلة الأزهر : عدد رجب ١٣٩٧ هـ (يوليو ١٩٧٧ م) .

إن حقيقة الإعجاز العلمى للقرآن لم تعد قضية تقبل الجدل فقد أقرَّ بها شيوخ التفسير منذ قرون وحسمها شيوخ الأزهر فى العصرالحديث ، وشهد بها رجال العلم الحديث مسلمين وغير مسلمين .

❋

● من شهادات العلماء :

قام الطبيب الفرنسى « موريس بوكاى » بعمل دراسة دقيقة وجادة فى الكتب المقدسة والعلم ، ونشرها بالفرنسية تحت عنوان :

(La Bible, Le Coran et la Science)

وقد نشرت « دار المعارف » ترجمتها العربية تحت عنوان « **دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة** » . وإذا كان جوهر هذه الدراسة ينحصر فى مقابلة نصوص الكتاب المقدس - بعهديه القديم والجديد - والقرآن بحقائق العلم ، فإن المؤلف قدَّم لدراسته هذه بالبحث فى التوراة والأناجيل والقرآن ودراستها النقدية وكيفية جمعها ودرجات الدقة لنصوص كل منها .

وقد اضطره ذلك إلى تعلم اللُّغة العربية حتى يستطيع الحديث عن القرآن وتفسيراته حديث الواثق الذى ينهل من الأصل مباشرة ، فيتجنب بذلك التفاوت والأخطاء التى قد تتعرض لها عملية الترجمة .

يقول « موريس بوكاى » فى مقدمة كتابه :

« لقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور .

ففى البدء قيل إن إتفاق العلم والكتب المقدسة أمر لازم لصحة النص المقدس .

وسوى نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جداً ، خلافاً لقلتها فى التوراة ، إذ ليس هناك أى وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية ، وبين تعدد وكثرة

الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن ، **وإنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية . وتلك هى النتيجة الأساسية التى تخرج بها دراستنا .**

هذه التأملات حول الصفة المقبولة أو غير المقبولة علمياً لمقولة فى كتاب مقدس تتطلب منا إيضاحاً دقيقاً . إذ علينا أن نؤكد أننا عندما نتحدث هنا عن حقائق العلم فإننا نعنى بها كل ما قد ثبت منها بشكل نهائى . وأن هذا الاعتبار يقضى باستبعاد كل نظريات الشرح والتبرير التى قد تفيد فى عصرنا لشرح ظاهرة ولكنها قد تلغى بعد ذلك تاركة المكان لنظريات أخرى أكثر ملاءمة للتطور العلمى . وإن ما أعنيه هنا هو تلك الأمور التى لا يمكن الرجوع عنها ، والتى ثبتت بشكل كاف بحيث يمكن استخدامها دون خوف الوقوع فى مخاطر الخطأ ، حتى وإن يكن العلم قد أتى فيها بمعطيات غير كاملة تماماً .

وعلى سبيل المثال فإننا نجهل التاريخ التقريبى لظهور الإنسان على الأرض ، غير أنه قد اكتشفت آثار لأعمال بشرية نستطيع وضع تاريخها فيما قبل الألف العاشرة من التاريخ المسيحى دون أن يكون هناك أى مكان للشك . **وعليه فإننا لا نستطيع علمياً قبول صحة نص سِفر التكوين الذى يعطى إنساناً ، وتواريخ تحدد أصل الإنسان (خلق آدم) بحوالى ٣٧ قرناً قبل المسيح .. وبناءً على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقدم الإنسان غير صحيحة .**

لقد قمتُ أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث . وكنتُ أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى **استطعتُ أن أحقق قائمة أدركتُ بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث** » [١] .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ص ١١ - ١٣

بعد هذه المقدمة عرض « موريس بوكاى » لأصل الكتاب المقدس وأسفاره ومواقف الكُتّاب المسيحيين تجاه الأخطاء العلمية فى نصوص العهد القديم ودراستها النقدية ، ثم تعرّض للأناجيل ومصادرها وما وصفه بـ « تناقضات وأمور غير معقولة فى الروايات » .

ثم تحدّث عن القرآن وصحة النص وتاريخ تحريره وجمعه ومقابلة المعطيات القرآنية عن الخَلْق وعلم الفَلَك ، وعالَم النبات وعالَم الحيوان ، والتناسل الإنسانى ، ثم قام بموازنة بين القرآن وكل من الأناجيل والعهد القديم والمعارف الحديثة - ثم انتهى من بحثه الطويل هذا إلى خاتمة أثبت بها خلاصة ما انتهى إليه .

وفى بدء حديثه عن « القرآن والعلم الحديث » قال :

« لقد آثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية . فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كُتِبَ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

فى البداية لم يكن لى أى إيمان بالإسلام . وقد طرقتُ دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مُسَبَّق وبموضوعية تامة . وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعليم الذى تلقيته فى شبابى حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن المعنى به دين أسّسه رجل ، وبالتالى فهو دين عديم القيمة تماماً إزاء الله . وككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظاً بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام وهى على درجة من الانتشار بحيث إننى أدهش دائماً حينما ألتقى خارج المتخصصين بمحدّثين مستنيرين فى هذه النقاط . أعترف إذن بأننى كنت جاهلاً قبل أن تُعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيناها فى الغرب .

وعندما استطعتُ قياس المسافة التى تفصل واقع الإسلام عن الصورة التى اختلقناها عنه فى بلادنا الغربية شعرتُ بالحاجة المُلِّحة لتعلم اللُّغة العربية التى لم

أكن أعرفها وذلك حتى أكون قادراً على التقدم فى دراسة هذا الدين الذى يجهله الكثيرون . وكان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعيناً بمختلف التعلقيات اللازمة للدراسة النقدية . وتناولتُ القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات (الظواهر) الطبيعية .

لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه (الظواهر) وهى تفاصيل لا يمكن أن تُدْرَك إلا فى النص الأصلى ، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه (الظواهر) والتى لم يكن ممكناً لأى إنسان فى عصر محمد أن يُكَوِّن عنها أدنى فكرة .

إن أول ما يثير الدهشة فى روح مَن يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالَجة فهناك الخَلْق وعلم الفَلَك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالَم الحيوان ، وعالَم النبات ، والتناسل الإنسانى .

وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكتشف فى القرآن أى خطأ » [1] .

*

ثم كان من جملة ما انتهى إليه « موريس بوكاى » فى خاتمة بحثه أن قال :

« إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللّذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يُظهر أيضاً - لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص ، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . بل أكثر من ذلك وكما أثبتنا ، يكتشف القارىء فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنساناً فى عصر محمد - ﷺ - قد استطاع أن يؤلفها ، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التى كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٤٤ - ١٤٥

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تُبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة ، ولقد رأينا دليلاً على هذا من خلال روايتى الخلق والطوفان .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بَشر ، وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد - ﷺ - **لذا فمن المشروع تماماً أن يُنظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من اللّه ، وأن تُعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو وكأنها تتحدى أى تفسير وضعى .**

عقيمة حقاً تلك المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية » [1] .

* *

٢ - التحدى بالغيب

الإيمان بناء أساسه الغيب ...

لكنه بناء قَوامه البرهان ، وإلا تساوت المتضادات ، فاستوى النور والظلمات ، واستوى الأحياء والأموات ... وهذا محال .

فلم يشهد أحد من البَشر خلق السموات والأرض ، ولم يشهد بنو آدم خلق أنفسهم ، لكن المؤمنين منهم يؤمنون بالغيب ، فهم يؤمنون بقصة « الخلق » حسبما ترويها كتبهم المقدسة ، وإن اختلفت بينها الروايات .

ولم يشهد أحد من الأجيال المتأخرة - التى بَعُدَ بها الزمان - الأنبياء والمرسلين وهم يلقون قول اللّه ، ويبثون التعاليم ، ويتحدثون إلى الناس عن

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٨٥ - ٢٨٦

الملائكة والبعث والجزاء ، لكن المؤمنين من الناس يؤمنون بالغيب ، فهم يؤمنون بهم وبما أُثِرَ عنهم ويؤمنون بالملائكة والقيامة والثواب والعقاب .

وإذا تصوَّر الإنسان أنه يستطيع الاستغناء عن معرفة الماضى بكل ما فيه ، فلا مجال على الإطلاق لإمكانية استغنائه عن معرفة المستقبل الذى ينتظره بعد الموت . إنه المستقبل الغيب ، وهو المستقبل الخطير الذى يحدد مصيره الأبدى .

ويقودنا هذا إلى التسليم بأنه : إن لم يكن الغيب أولاً ، فإنه الغيب أخيراً .

من ذلك نتبين خطورة حديث الغيب فى الكتب المقدسة ، واعتباره برهان صدق على ما يأتى به الزمان بشرط - واحد على الأقل - أن يصدق حديثها عن كل ماض سبق أن تنبأت بشأنه من أحداث .

وللغيب فى القرآن مقامه الذى يحظى به ، ويكفى أن ننظر أول المصحف فتطالعنا هذه الآيات :

﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة : ١ - ٥)

ولحديث الغيب فى القرآن آيات تُغنى كل مَن يقبل الإيمان القائم على برهان ، وأما أولئك الذين حددوا مسبقاً مواقفهم منه ، وأصروا على الجحود والنُكران ، فقد صاروا بإرادتهم الحرة هم ﴿ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (يونس : ٩٦ - ٩٧) .

ففى قضية الإيمان يقول الحق : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ١٠١) .

هذا .. ولسوف نعرض بعضاً من أنباء غيب المستقبل الذى يتحدى به القرآن الكفار والجاحدين منذ نزل وحياً على رسول الله حتى يأتى أخطر غيب فى حياة البَشر ، ألا وهو يوم الدين .

*

● التنبؤ بهزيمة الكفر :

منذ بدأ القرآن فى التنزيل وهو فى تحد مباشر لخصوم دين الله الذين أغلقوا عقولهم دونه وأعلنوا الحرب على أتباعه . ولما كان أشد خصومه هم سادة قريش وكبراءها وكان المسلمون الأوائل على قلة فى العدد والقوة فكان المتوقع - وفق مقاييس البَشر وخبراتهم - أن تكون أوائل آياته ليِّنة مع أُولئك الخصوم والمعاندين طالما بقى ميزان القُوَى فى غير صالح المسلمين .

لكن الأمر جاء على عكس ما يتوقعه البَشر من الحكماء والمفكرين ...

لقد بدأت آياته قوية الحملة على الكافرين واستمرت كذلك حتى اكتمل الدين . إنها قوية لأنها الحق المطلق الذى لا يعرف فى مواجهة الباطل ولو أقل القليل من المهادنة أو المداهنة .

وهى قوية أبداً لأنها كلام الله رب العالمين ...

*

لقد تنبأ القرآن - فى ثانية سوره نزولاً - بمقتل الزعيم القرشى الوليد بن المغيرة بضربة حدَّد موقعها على أنفه ، وذلك بعد أن فضح أصله وكشف سرائر نفسه ، فقال مخاطباً الرسول :

﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (القلم : ٩ - ١٦) .

ثم مرت الأيام والشهور ونزل كلام الله يتوَّعد ذلك العُتُّل القرشى بعذاب الآخرة الذى ينتظره جزاء موته على الكفر ، وذلك بعد أن فضح خلجات نفسه وشكوكه وهواجسه بل وتقلصاته ، فقال :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (المدثر : ١١ - ٢٩) .

ثم تمضى السنون .. ثلاث عشرة سنة أو نحوها وإذا بالوليد بن المغيرة يُقْتَل فى غزوة بدر بضربة على أنفه .

لقد زهقت نفسه كافراً - كما تنبأ القرآن - خلال سنوات تم خلالها تحول الكثيرين من الكفر إلى الإسلام .

وبالمثل كانت نبوءة القرآن فى أبى لهب - عم النبى - والذى كان من أشد الناس عداوة له وإيذاءً ، فنزلت فيه سادسة السور نزولاً تنبأ له بالعذاب جزاء كفره المستمر فتقول : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴾ (سورة المسد) .

وكما هو معلوم فإن القرآن منذ بدأ تنزيله وآياته تُذاع فور تلقيها ، يقرؤه النبى على المؤمنين ويقرؤنه جميعاً تعبداً وتبركاً والتزاماً . فحين نزلت هذه السورة ذاع خبرها فوراً وكان أن سمعت بها أم جميل بنت حرب امرأة أبى لهب « فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر . فقالت : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية (المسجد) . ما ينطق بالشعر ولا يتفوّه به » .

والحق ما قاله أبو بكر ، لأن الذى هجاها وتوعّدها هى وزوجها أبا لهب إنما هو الله - سبحانه - ولو كانت الأمور تسير على هوى الرسول لآثر المهادنة ولين

الحديث فى بدء الدعوة - على الأقل - والمسلمون آنذاك ضعاف ، لكنه القرآن كلام رب العالمين فُرِضَ على الرسول فرضاً وما عليه إلا أن يصدع بما يؤمر لأنه ليس له من الأمر شىء إذ أن الأمر كله لله .

ولقد عاش أبو لهب بعد هذه النبوءة أكثر من ثلاثة عشر عاماً إلى أن مات على كفره . وكان باستطاعة أبى لهب وامرأته والوليد وأمثالهم أن يتظاهروا بالدخول فى الإسلام كيداً له وطعناً فى صدق محمد ورسالته ، لكن هذا الأمر على بساطته استحال عليهم فعله تحقيقاً لنبوءات القرآن كلام رب العالمين .

*

وإذا تركنا التنبؤ بالأحداث على المستوى الفردى - وهو لا شك مُعجز ودقيق- لوجدنا القرآن ينبىء كذلك بالأحداث على المستوى الجماعى . فلقد قرَّر أن جمع الكافرين سيلقى الهزيمة فى معركة ضد المسلمين يولى فيها الأدبار ، وذلك حين قال عن الكفار وتوقعاتهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٤ - ٤٥) .

إن القرآن يتنبأ هنا بما سوف يحدث لهم فى الدنيا ، لأن الآخرة لا مكان فيها لتولى الأدبار والفرار .

ولقد بيَّن القرآن أن دحرهم فى الآخرة شىء آخر ينتظرهم ، وهو بطبيعة الحال أشد وأنكى . ولذلك أتبع آية النبوءة السابقة بقوله :

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

(القمر : ٤٦ - ٤٨)

لقد كان المسلمون حين نزلت آية النبوءة هذه على حال من الضعف الشديد ، حال لا تسمح بتصور تحقيق أى انتصار على قُوَى الكفر التى تبطش بهم ، وهى حال دفعت عمر بن الخطاب - الذى عُرِفَ

طيلة حياته بقوة البناء النفسى والبدنى - لأن يقول : « أى جمع يُهزم ! أى جمع يُغلب » !

وما هى إلا سنوات حتى كانت معركة بدر الكبرى ، وفيها هُزِمَ جمع الكفار وولوا الأدبار .

* * *

● التنبؤ بانتصارالإسلام :

إن التنبؤ بانتصار الإسلام مرادف تماماً للتنبؤ بهزيمة الكفر فالنتيجة واحدة فى الحالتين .

وإذا كان القرآن قد بدأ الحديث عن هزيمة الكفر قبل أن يبدأ الحديث عن انتصار الإسلام ، فلأن ذلك يماثل مهاجمة الأعداء فى عقر دارهم وإخراجهم منها أذلة وهم صاغرون .

وإذا كان القرآن قد بدأ بالتحدى على المستوى الفردى فلأن ذلك أشد وقعاً وأعمق أثراً ، إذ أنه يدفع رءوس الكفر إلى ضرورة المواجهة وقبول التحدى ، وإلا انفضح أمرهم وانكشف ما هم فيه من زيف وضلال أمام الخصوم والأشياع - على السواء - فصاروا بذلك مثلاً للزعامة الكاذبة ، وذلك خلافاً لحالة التحدى الجماعى التى قد يجد فيها الكثيرون فرصة للتقاعس عن المواجهة والقعود انتظاراً لما قد يحققه الغد من ظنون وأوهام .

*

هذا .. ولقد تنبأ القرآن بما سيكون عليه أمر النبى فألقى نبوءة صريحة تقطع بحفظه من كل محاولات الكفار لقتله والقضاء عليه - وذلك ما نجده فى قول الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

قالت عائشة : « كان النبى - ﷺ - يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ قالت : فأخرج النبى - ﷺ - رأسه من القبة وقال : « يا أيها الناس انصرفوا . فقد عصمنا الله عز وجل » .

لقد اكتملت رسالة النبى فى حياته ومات ميتة طبيعية على فراشه بين أهله وصحابته فتحققت بذلك نبوءة القرآن تماماً .

* * *

وفى مجال التنبؤ بانتصار بانتصار الإسلام ممثلاً فى انتصار نبيه نقرأ قول الله : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج : ١٥)

ولقد قال ابن عباس - وأصحابه - فى تفسير الآية : « مَن كان يظن أن لن ينصر الله محمداً - ﷺ - فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق به » والمعنى : « أنه مَن كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة » .

إن الكلام واضح تماماً فلقد تحقق نصر الله لرسوله فى الدنيا ، وهو برهان على نصره فى الآخرة : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم : ٨) .

*

ولقد تنبأ القرآن بانتصار الإسلام ليكون ديناً عالَمياً فقال متحدياً أهل الكفر والشرك :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّه بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِه وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ (الصف : ٨ - ٩) .

إن الإسلام منذ ظهر وهو يمتد أبداً . ويجب ألا نخلط بين الإسلام وما يتعاقب على المسلمين من أحوال القوة والضعف ، فتلك أمور تتناسب طردياً مع استمساكهم به أو ابتعادهم عنه . إن هذه مسلّمات يعترف بها أعداء الإسلام .

يقول المستشرق الألمانى « باول شمتز » :

« بينما كان الغرب فى القرون الماضية يحرز انتصارات سياسية فى كل مكان فى وسط إفريقيا ، امتد - وما زال يمتد - الزحف الروحى الإسلامى الذى لا يمكن لأحد أن يوقفه وانتصر على المسيحية ، فحيثما حُلَّ الإسلام ضاعت جهود المبشرين المسيحيين وفقدوا الأمل فى تحويل روح وثنية إلى المسيحية . فالإسلام فى تماسكه وبساطته متفوق على المسيحية المبددة جهودها فى نزاعات عقائدية وخلافات مذهبية تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم فيتعسر فهمها ، وليس بالإمكان حل طلاسمها . ولا يغزو الإسلام هذه المناطق عن طريق دخول الناس فيه فرادى بل يحاول غزو القبيلة كلها كوحدة وطنية لأنه لا يوجد دين آخر غير الإسلام يربط الحياة السياسية والدينية ببعضها ويُوَحِّد بين الطبيعة الروحية والدنيوية فى الفرد » (١) .

ويقول المفكر الإنجليزى « هيلبير بلوك » :

« لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً وتحمل فى طيّاتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه . ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية وخاصة ما يتصل بالحرب (القوة العسكرية) فهولم يلحق بالتقدم التكنولوچى

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية : ص ٣١٩

الحديث . إنى لا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوِّض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها الخبرة وتوجيه الخبراء . لماذا لا يتعلم العالَم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوچيا ، وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا (نحن الغربيين) استعادة التعاليم الروحية التى فقدتها المسيحية بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها » [1] .

* *

● التنبؤ بانتصار الروم على الفُرس :

بَعَثَ اللّه محمداً برسالة الإسلام وهو فى الأربعين من عمره ويُقَدِّر المؤرخون أن بدء الوحى كان حوالى عام ٦١٠ م . وفى تلك الفترة كان عرب الجزيرة يعيشون على هامش الأحداث التى يصنعها ذلك الصراع الطويل بين القوتين العظميين فى ذلك الزمان وهما الروم والفُرس .

لقد كان صراعاً تميَّز بطول المعارك وشراستها وأدى إلى اضطرب الأحوال السياسية فى منطقة الشرق الأدنى لمدة طويلة . ويقدم لنا **المؤرخ الإنجليزى « ستيفن رنسيمان »** صورة عن أحوال تلك الفترة من الصراع فيقول : « فى سنة ٦٠٢ استولى على السلطة الرومانية فوكاس قائد إحدى الكتائب الإمبراطورية واغتصب العرش الإمبراطورى وطفح عهده بالهمجية وانعدام الكفاية والاضطراب ، فبينما عانت القسطنطينية عهد إرهاب ، ساد بالأقاليم ما نشب من الفتن والحروب الداخلية بين أحزاب الملعب فى المدن وبين المذاهب الدينية المتنازعة .

وفى سنة ٦١٠ أزاح فوكاس عن العرش نبيل شاب ينتمى إلى أصل أرمنى هو هرقل ابن حاكم إفريقية .

وفى نفس السنة أتم كسرى الثانى ملك الفُرس استعداداته الحربية لغزو الإمبراطورية (الرومانية) وتقطيع أوصالها . استمرت الحروب الفارسية تسع عشرة سنة على

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٣

أن الإمبراطورية ظلت اثنتى عشرة سنة تتخذ خطة الدفاع بينما احتل جيش فارسى بلاد الأناضول وقام جيش فارسى آخر بفتح الشام فسقطت فى أيديهم أنطاكية سنة ٦١١ ودمشق سنة ٦١٣ ، وفى ربيع سنة ٦١٤ دخل فلسطين القائد الفارسى شهرباراز فصار ينهب الأراضى ويحرق الكنائس أينما سار ولم يفلت من يده إلا كنيسة المهد فى بيت لحم لما كان يعلو بابها من فسيفساء تمثل رسم صورة الحكماء القادمين من الشرق فى أزياء فارسية . وفى ١٥ إبريل سنة ٦١٤ اقتحم شهرباراز بيت المقدس ، واستعد البطريرك زكريا لتسليم المدينة ليتجنب سفك الدماء ، غير أن السكان المسيحيين رفضوا الاستكانة إلى التسليم ، وفى ٥ مايو سنة ٦١٤ وبفضل مساعدة اليهود المقيمين داخل المدينة شق الفُرس طريقهم إلى داخل المدينة فتلى ذلك من المناظر المريعة ما يجل عن الوصف ، إذ صحب اشتعال النار بالكنائس والدور من حول المسيحين أن تعرضوا للقتل دون تمييز فقام العساكر بالإجهاز على بعضهم بينما زاد عدد الذين لقوا مصرعهم على أيدى اليهود . وبلغ عدد الذين تعرضوا للقتل نحو ٦٠ ألفاً على ما جاء فى بعض الروايات ، وزاد على ٣٥ ألفاً من جرى استرقاقه وبيعه ...

وزحف الفُرس على مصر بعد ثلاث سنوات (٦١٧م) وأضحوا سادتها فى خلال سنة واحدة . وفى تلك الأثناء تقدمت جيوشهم شمالاً حتى بلغت البوسفور .

على أن سقوط بيت المقدس فى أيدى الفُرس كان صدمة عنيفة للعالم المسيحى ، وما قام به اليهود من دور فى ذلك لم يجر نسيانه أو اغتفاره ، فاتخذت الحرب مع الفُرس صفة الحرب المقدسة . فلما صار هرقل آخر الأمر سنة ٦٢٢ قادراً على أن يتخذ خطة الهجرم على العدو نذر نفسه وجيشه لله ومضى على أنه محارب مسيحى يقاتل قوى الظلمة (الشر) .

واستطاع هرقل آخر الأمر برغم ما جرى من تقلبات عديدة فى الأحداث وما اشتد من القلق واليأس فى أوقات عديدة أن يُنزل الهزيمة الساحقة بالفُرس » [١] .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية : الجزء الأول - ص ٢٤ - ٢٧

وحين ننظر إلى ما كان عليه الحال عام ٦١٤ فإنّا نجد النصر يسير فى ركاب الفُرس على حين تلحق بالروم الهزائم المتواليات . ولكن ذلك العام شهد نزول آيات من القرآن تقول :

﴿ آلَمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(الروم : ١ - ٦)

لقد حزن المسلمون لهزائم الروم لما شعروا به نحوهم من روابط القُربَى فى الإيمان باللّه والملائكة والكتاب والنبيين ، **على حين فرح المشركون بانتصار الفُرس أو كما قال المستشرق الألمانى « كارل بروكلمان » : « هلل المكيون لهذه الانتصارات الفارسية ولكن محمداً أعلن أتباعه أن الهزيمة لا بد أن تحل بالفُرس فى وقت قريب »** (١) .

لقد كان النبى يعلن الناس من حوله بكل ما يقول القرآن فور تلقيه وهو هنا قد أعلنهم بنبوءة رد الكَرَّة إلى الروم وتحقيق انتصارهم على الفرس .

ولقد استمرت الأمور تسير بعد نزول آية النبوءة هذه فى غير صالح الروم إذ استولى الفُرس على مصر فى عام ٦١٨ كما هددوا القسطنطينية قلب الإمبراطورية .

ولكن ما إن جاء عام ٦٢٢ حتى بدأ الموقف يتحول لصالح الروم « واتخذ هرقل خطة مهاجمة الفُرس فقام بثلاث حملات باهرة فى الإقليم الواقع من خلف جبال القوقاز » (٢) **« ثم لم يلبث أن انتزع من كِسرى ثمرات النصر الذى تم له وتعقبه حتى عاصمة ملكه .. ومن**

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية : ص . ٩ (٢) تاريخ الشعوب الإسلامية : ص . ٩

ذلك الحين والإمبراطورية الساسانية (الفارسية) تسير قُدَماً نحو مصريها النهائى المحتوم إلى الدمار » [1] .

لقد انتهت هزائم الروم أمام الفُرس وبدأ انتصارهم ولما يمضى على نزول آية النبوءة بضع سنين - وهو العدد أقل من عشرة - واستمر الموقف كذلك حتى استرد الروم كل ما فقدوه .

لقد كانت هذه الآية برهاناً لمن هو فى ريب من القرآن على صدق تنزيله ، فمن المحال على بَشرٍ عاقل أن يربط مصير دعوته بصراع متقلب الأحداث والمفاجآت كصراع الروم والفُرس ، فماكانت هذه النبوءة إلا تنزيلاً ممن ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الزمر : ٦٣) .

* *

أما بعد ...

إن أمر الغيب كان - ولا يزال - من أخطر ما يحدد حقيقة التنزيل فى الكتب المقدسة ولقد كان من جرّاء فشل بعض التنبؤات المنسوبة للمسيح أن نسب جماعة من علماء المسيحية الخطأ إليه ، وكان الأحرى بهم أن ينسبوه إلى كتبة الأناجيل

ذلك أن الأناجيل تتنبأ بنهاية العالَم وعودة المسيح ثانية إلى الأرض فى القرن الأول من الميلاد .

« ورغم أن إنجيل متى هو أحد كتب العهد الجديد الذى ذكر بوضوح حدوث النهاية السريعة للعالَم فإننا في الواقع نجد أن أغلب كُتّاب العهد الجديد قد عبّروا عن هذه العقيدة .

وفى اعتقاد كثير من العلماء أن يسوع نفسه كان يتطلع إلى عودته سريعاً إلى الأرض بعد وفاته فى مجد وبهاء » [2] .

*

---

(١) موسوعة تاريخ العالَم : جزء ٢ - ص ٤٧٨

(٢) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ص ٢٣

لقد وقف كفار قريش يعاندون رسول الله فقالوا : « ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء : ٩٠ - ٩٣) .

لقد كانوا يطلبون المعجزات المادية - معجزات الحوادث - لا رغبة فى البرهان على صدق الرسالة - فقد علموا صدق الرسول - ولكنه العناد والتعجيز . وأمثال هؤلاء ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ (يونس : ٩٦ - ٩٧).

فلقد سبق أن جاءت ثمود الناقة وقال لهم نبيهم صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ .

(الشعراء : ١٥٥ - ١٥٨)

وإذا كان هذا موقف سالفيهم من العرب ، فإنه كذلك موقف سالفيهم من الإسرائيليين الذين وقفوا يعاندون المسيح وقد جاءهم بمعجزات الحوادث فكذّبوه وقالوا إنه ساحر يستخدم قُوَى الشياطين : فقد « أُحضِرَ إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه حتى إن الأعمى الأخرس تكلم وأبصر ، فبهت كل الجموع وقالوا : لعل هذا هو ابن داود . أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يُخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين » (متى ١٢ : ٢٢ - ٢٤) .

ومَن يتصفح التاريخ يجد سُنَّة الله قائمة فى إنزال العذاب بمكذّبى معجزات الحوادث فى الدنيا قبل الآخرة .

فلقد حدث ذلك لثمود إذ جعلهم الله عبرة وقال فيهم : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل : ٥١ - ٥٢) .

وحدث ذلك لبنى إسرائيل بعد أن عبدوا العجل فى سيناء فقد قال لهم : « الرب إله إسرائيل ..ضعوا كل واحد سيفه على فخذه .. واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه .. ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل .. فضرب الرب الشعب لأنهم صنعوا العجل الذى صنعه هارون » (؟!) .

(خروج ٣٢ : ٢٧ - ٣٥)

وحدث ذلك لبنى إسرائيل بعد ذلك مرات ومرات ، وحدث لذُرِّيتهم بعد أن كذَّبوا المسيح وتآمروا عليه فما هى إلا فترة وجيزة حتى انقض عليهم الرومان فقتلوا الآلاف وهدموا الهيكل وشرَّدوا الباقين . تلك سُنَّة اللّه التى أفهمها من قول الحق : ﴿ وَإِنْ كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٦ - ٧٧) .

هذا .. ولما كان محمد رسول اللّه إلى العالَمين فقد اقتضت حكمة اللّه أن تكون معجزته هى القرآن ، كتاب هو منهج اللّه وهو فى ذات الوقت يشتمل على آيات اللّه التى تستطيع البشرية فى نضجها وترقيها أن تجدها ماثلة أمامها ، فتستوعبها وتؤمن بها .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد : ٧) .

لقد اتسع مجال الرسالة من القَبلية المحدودة إلى العالَمية ، فتغيَّرت لذلك آيات صدق الرسول من معجزات مادية لم تلبث أن طواها الزمان ، إلى آيات قرآنية يتجدد الإيمان بها كلما تقدمت السنون ومرت الأعوام .

وأمر الغيب فى القرآن برهان صدق ويقين ، يستطيع كل عاقل أن يستخلص منه بديهية تماثل تلك البديهيات التى تقوم عليها العلوم الرياضية والطبيعية ، بديهية تقول : إن مَن صدقك الحديث بالأمس سوف يصدقك غداً .. ونقيض ذلك مفهوم ومعلوم ...

من أجل ذلك نقرأ فى القرآن :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ للَّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (يونس : ٢٠) .

* * *

٣ - القرآن والكتب المقدسة السابقة

لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بوحى اللّه وكُتُبه التى سبقت القرآن وقد ذكرها إجمالاً فى قوله :

﴿ قُلْ آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٨٤) .

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ (الشورى : ١٥) .

وبذلك كان المسلمون هم الطائفة الوحيدة على ظهر الأرض التى تؤمن بكل كتب اللّه المُنزَّلة ، وقد سجل القرآن ذلك فى قوله : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٩) .

ثم ذكر القرآن بعضاً من هذه الكتب تحديداً كما جاء فى حديثه عن صحف إبراهيم :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى : ١٤ - ١٩) .

وتحدث القرآن عما أُوتيه داود فقال : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ .

(النساء : ١٦٣)

على أن ما يعنينا فى هذا المقام هو موقف القرآن من الأسفار اليهودية والمسيحية ، والتى تتكوّن بوجه عام [1] من التوراة وتُعرف باسم أسفار موسى الخمسة ، ثم أسفار الأنبياء الذين ظهروا فى بنى إسرائيل من بعد موسى حتى عصر الميلاد ، وأخيراً إنجيل المسيح .

*

● **موقف محدَّد :**

لقد جاء القرآن واضحاً فى موقفه تجاه هذه الأسفار وحَفَظَتها من الأحبار والعلماء فذكر عدداً من الأساسيات منها :

١ - تعرضت الأسفار اليهودية والمسيحية للفقد والضياع بسبب التفريط فى التحفظ عليها وحفظ ما فيها فصارت تلك المفقودات نسياً منسياً :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة : ١٢ - ١٤) .

---

(١) يرفض اليهود الأسفار المسيحية كلها كما يختلف اليهود والمسيحيون على الأسفار المقدسة والمشتركة بينهم . راجع كتاب المؤلف : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية .

٢ - قام على أمر هذه الكتب طائفة من الأحبار والكهنة والكَتَبة وُجِدَ بينهم :

(أ) الذين يُحَرِّفون كلام اللّه بتغييره وتبديله وعدم الحفاظ على صورته الأصلية :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ ﴾ (النساء : ٤٦) .

(ب) الذين يضيفون إلى كلام اللّه وينقصون منه ما شاءت لهم أهواؤهم ثم يَدَّعون أن ذلك وحى اللّه :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُواْ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٨ - ٨٠) .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ ، وكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُّبِيناً ﴾ .

(النساء : ٥٠)

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة : ٧٩) .

(جـ) ولقد دَرَجَ كثير منهم ممن عُهِدَ إليهم بالحفاظ على كتب اللّه من الكَتَبة والرؤساء الدينيين على كتمان الحق الذى لا يتفق وأهواءهم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

(البقرة : ١٧٤ - ١٧٦)

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧١) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥ - ١٦) .

ولقد ترتب على تلك المواقف الخطرة من أهل الكتاب أن صارت هذه الأسفار تشتمل على بقية من حق أنزله الله ، كما اشتملت على غير الحق الذى أشاع فيها التناقض والاختلاف .

*

على أن القرآن قد فرّق بين الأخيار والأشرار من أهل الكتاب وأعطى كُلاً قدره ، فهو قد أثنى على أهل الخير منهم أطيب ثناء ووعدهم حُسن المآب :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ .

(آل عمران : ١١٣ - ١١٥)

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران : ١٩٩) .

كذلك فإن القرآن حمل بشدة على الأشرار من أهل الكتاب وتوعدهم سوء المنقلب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ .

(النساء : ١٥٠ - ١٥١)

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ .

(البقرة : ٧٨)

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

(المائدة : ٧٧)

ونستطيع الآن تقرير ما يمكن استخلاصه من موقف القرآن من الأسفار اليهودية والمسيحية - أى الكتاب المقدس - فنقول : **إن هذه الأسفار بها بقية مما أنزله الله ، كما أنها** فقدت **قدراً من الحقائق عندما ضاع منها حظ من التنزيل الإلهى ، وهى تضم بين جنباتها اختلافاً كثيراً بسبب ما صنعته بها أيدى البَشر الذين استُحْفِظوا عليها وقاموا على أمرها .**

* *

مجمل دراسات الكتاب المقدس

تعرضت أسفار الكتاب المقدس لدراسات مستفيضة خلال القرون الأخيرة شارك فيها عدد كبير من علماء اليهودية والمسيحية ، وقد انتهت دراستهم إلى

تقارير ونتائج محدَّده ليس هذا مجال عرضها ولكن يكفينا هنا أن نُلِمَّ بشىء من خطوطها العامة ثم نقارن بينها وبين ما يُستخلَص من موقف القرآن من هذه الأسفار .

ولسوف نعرض لمجمل دراسات الكتاب المقدس من زاويتين أساسيتين : الأولى : عرض لبعض ما قاله العلماء عن أسفاره ، والثانية : نظرة فىٰ أسفاره ، يستطيع بها القارىء العادى أن يلمس بنفسه حقيقة هذه الأسفار .

*

أولا - أسفار العهد القديم

(أ) حديث عن أسفار العهد القديم :

١ - **تقول دائرة المعارف الأمريكية** : « لقد كان هناك نشاط أدبى بين الإسرئيليين فى عهد مبكر فسجلوا تقاليدهم القَبلية وقوانين الجماعة الإسرائيلية ، وهذا بجانب الأغانى الشعبية وترانيم العبادة وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووحى .. وبعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج وعن غير قصد عناصر من هذه الآداب ، اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية . وبهذا أُعطيت هذه العناصر وقاراً خاصاً تفرَّدت به وتحوَّلت بذلك إلى كتابات مقدسة . **ولا شك أن الكُتَّاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة فى حياة الطائفة الإسرائيلية ، فى يوم من الأيام** » [١] .

*

٢ - « وقد اكتسب كل من الأجزاء الرئيسية للعهد القديم صبغته القانونية على مدى قرون طويلة بيانها كالآتى :

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية : الجزء الثالث ص ٦١٣

« اكتمل للناموس (أسفار موسى الخمسة) شرعيته حوالى عام ٤٠٠ ق .م - والأنبياء (يشوع - صموئيل - أشعياء - أرمياء .. ملاخى) حوالى عام ٢٠٠ ق .م - وأما الكتب (المزامير - الأمثال - أيوب - دانيال .. أخبار الأيام) فكانت حوالى عام ٩٠ ميلادية » [١] .

هذا .. وإذا كانت تواريخ تلقى موسى للتوراة تتراوح بين عامى ١٢٩٠ ، ١٢٥٠ ق . م صار من الواضح أن أسفار « الناموس » التى وصلتنا قد استغرقت أكثر من ثمانية قرون حين اكتمل بناؤها وأخذت صورتها القانونية . ولا يختلف الحال كثيراً بالنسبة لأسفار « الأنبياء » و « الكتب » فكليهما استغرق قروناً عدة ليكتسب قانونيته .

*

٣ - « يعتبر العهد القديم كتاباً غير متجانس ، إذ أنه مجموعة من الوثائق تكوَّنت خلال فترة تزيد على الألف عام بواسطة رجال لهم تراث لُغوى متعدد .

ولم تصلنا أية نسخة بخط المؤلف الأصلى لكتب العهد القديم ، أما النصوص التى بين أيدينا فقد نقلتها إلينا أجيال عديدة من الكَتَبة والنُسَّاخ ، ولدينا شواهد وفيرة تبيِّن أن الكَتَبة قد غيَّروا بقصد أو بدون قصد فى الوثائق والأسفار التى كان عملهم الرئيسى هو كتابتها ونقلها ..

وقد حدث التغيير بدون قصد حين أخطأوا فى قراءة أو سمع بعض الكلمات أو فى هجائها ، أو أخطأوا فى التفريق بين ما يجب فصله من الكلمات وما يجب أن يكون تركيباً واحداً . كذلك فإنهم كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين ، وأحياناً ينسون كتابة كلمات بل فقرات بأكملها ، وأما تغييرهم فى النص الأصلى عن قصد فقد مارسوه مع فقرات بأكملها . حين كانوا يتصورونها قد كُتِبَتْ خطأ فى صورتها التى بين أيديهم كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات أو يزيدون على النص الأصلى فيضيفون فقرات توضيحية ..

---

(١) المرجع السابق : ص ٦٢٣

ولا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن وثائق العهد القديم لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد النسخى على الأقل فى الفترة التى سبقت اعتبارها أسفاراً مقدسة .

ولقد نشأ بين اليهود طائفة خصصت نفسها لرعاية هذه الوثائق عُرِفَت بالكَتَبة كما يشير إلى ذلك سفر عزرا .. وقد سميت هذه الطائفة أخيراً بالأسفاريين ولم يكن عملهم مقصوراً على النسخ ، بل كانوا حُفَّاظاً على الوثائق ومترجمين لها ، **بل ومؤلفين بكل معنى الكلمة .**

وكان من نتيجة عملهم أن أخذ النص صورته القانونية ليُترجَم بعد ذلك إلى اللُّغات الأُخرى .

وحين زاد الاحترام للأسفار فإن جماعة الأسفاريين قد أدخلت على النص بعض التغييرات التى تُبَجِّل اسم إله إسرائيل ، أو تُشَوِّه أسماء معبودات الوثنيين . كما كانوا يُنَقِّحون فقرات بدت لهم غير مفهومة وأحياناً يستخدمون أحدث ما صارت إليه اللُّغة بدلاً من اللُّغة القديمة ، فكل هذا ظاهر لدينا فى النص الذى نقلوه لنا » [1] .

*

٤ - يشير العهد القديم الذى نعرفه اليوم إلى كتب وأسفار أخرى غير موجودة الآن وتشير إليها أسفاره مثل : العدد ٢١ : ١٤ - ١٥ ، يشوع ١٠ : ١٣ ، صموئيل الثانى ١ : ٨ ، الملوك الأول ١١ : ٤١ » [2] .

*

٥ - وتقول دائرة المعارف البريطانية : « إن التقويم التاريخى لأحداث العهد القديم قد صار لاعتبارات كثيرة أمراً غير موثوق فيه . فقبل قيام المملكة لم تكن الظروف تسمح بعمل تقويم تاريخى يُعتمَد عليه وفى

---

(١) المرجع السابق : ص ٦١٥ - ٦١٨ (٢) المرجع السابق : ص ٦١٩

واقع الأمر فإن تاريخ الأحداث القديمة قد أُضيف بعد قرون عديدة من وقوعها ودرجة الدقة فيها مظهرية فقط .. وحتى بعد تكوين المملكة فإن الأخطاء تسربت إلى الأرقام بحيث صار الخطأ فى تواريخ الأحداث نحو بضع عشرات من السنين .

فالتقويم التاريخى لأحداث الفترة القديمة التى تبدأ من خلق الإنسان حتى خروج بنى إسرائيل من مصر يعتمد على ما يُعرف باسم روايات الكهنة لأسفار موسى الخمسة . **إن الأرقام هنا فى الغالب - إن لم تكن دائماً - إنما هى أرقام مصطنعة . ومن الملاحظات البارزة فى هذا المجال ما نجده فى اختلاف الأرقام بين كل من النسختين السامرية والإغريقية وبين النسخة العبرية** ، وذلك بالنسبة للفترة من بدء الخلق حتى مولد إبراهيم . إذ تنخفض الأرقام فى النسخة السامرية بينما ترتفع فى النسخة الإغريقية .

فالنسخة العبرية تُقدِّر للفترة من بدء الخلق حتى الطوفان ١٦٥٦ عاماً ، بينما يبلغ تقديرها فى النسخة السامرية ١٣٠٧ عاماً ، وفى النسخة الإغريقية ٢٢٦٢ عاماً .

كذلك تُقدِّر النسخة العبرية للفترة من الطوفان حتى دعوة إبراهيم ٣٦٥ عاماً ، بينما هى فى النسخة السامرية ١٠١٥ عاماً ، وفى النسخة الإغريقية ١١٤٥ عاماً .

إن هذه الأرقام ترجع إلى أُصول بابلية ولكنها عديمة القيمة التاريخية وحتى لو أخذنا بوجهة النظر التى تُقدِّر عام ١٤٩١ ق .م . تاريخاً لخروج الإسرائيليين من مصر - رغم أنه تاريخ مبكر أكثر من المحتمل - فإن تاريخ بدء الخليقة يرجع إلى عام ٤١٥٧ ق . م حسب النسخة العبرية (وإلى عام ٥٣٢٨ ق . م حسب النسخة الإغريقية) كذلك تكون بلبلة ألسن البَشر قد حدثت فى بابل عام ٢٥١٠ ق . م حسب النسخة العبرية (وفى عام ٣٠٦٦ ق . م حسب النسخة الإغريقية) .

لكن الآثار القدية للمصريين والبابليين تؤكد ظهور الإنسان على وجه الأرض لفترة طويلة من الزمن قبل أى من التاريخين المذكورين لبدء الخليقة . إن الأرقام المذكورة فى الإصحاحين الخامس والحادى عشر من سِفر التكوين ، لا تبيِّن سوى ما كان يتصوره كَتَبة الأسفار عن تواريخ تلك الأيام الغابرة » (١) .

* *

(ب) نظرة فى أسفار العهد القديم :

إن ما عرضناه حتى الآن يكفى للقول بأن أصدق ما يقال على الإطلاق فى أسفار العهد القديم وحفَظَتَها من أهل الكتاب هو ما ذكره القرآن فى تعبيره الدقيق : ﴿ نَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ (المائدة : ١٣) فلقد ظهر بوضوح كيف كان « نسيان » كَتَبة الأسفار بالمعنى الحرفى الكلمة ، وكيف كان « نسيانهم » بمعانيها الأخرى التى تعنى الإهمال فى التحفظ والترك عمداً أو سهواً مما نتج عنه الفقد والضياع .

ونعرض الآن عدداً محدوداً لأمثلة بسيطة يدرك بها القارىء درجة الدقة فى هذه الأسفار .

*

١ - تقول التوراة : « مات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب . ودفنه فى الجواء فى أرض موآب مقابل بيت فغور **ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم** » (تثنية ٣٥ : ٥ - ٦) .

من المؤكَد أن هذا القول لم يأت به موسى وحياً من عند اللّه . إنما هو وصف من عمل الكهنة حسب تصورهم للأحداث بعد وقوعها بالكثير من عشرات السنين كما يدل عليه قولهم : « إلى هذا اليوم » إذ يعنى هذا أن أجيالاً تعاقبت فى الفترة من موت موسى حتى كتابة التوراة ولا يعرف أحد منها قبر موسى .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : الجزء الثالث ص . ٥١

٢ - ظهرت بعض تراجم للعهد القديم عن العبرية القديمة من أهمها النسخة السبعينية الإغريقية والنسخة الأرامية والنسخة السوريانية والنسخة اللاتينية وتختلف هذه النسخ أحياناً عن النسخة العبرية الحديث ، إلا أنه بمقارنة هذه النسخ معاً فإنه يمكن الوصول أحياناً إلى النص العبرى الأصلى كما يتضح من المثال الآتى :

« فى سفر صموئيل الأول (١٤ : ٤١) نجد أن فقرة طويلة قد سقطت من النسخة العبرية الحديث على حين بقيت تلك الفقرة فى النسختين السبعينية واللاتينية . والكلمات التى كُتِبَتْ بالبنط الأسود هى التى فُقِدَت من النص العبرى :

وقال شاول للرب إله إسرائيل **لماذا لم تجب عبدك اليوم . إذا كان الذنب فى أو فى يوناثان ابنى ، يارب إله إسرائيل أعط أوريم ولكن إذا كان الذنب فى شعبك إسرائيل أعط ثميم .**

فأخذ يوناثان وشاول . أما الشعب فخرجوا » .

ولمعرفة السبب الذى من أجله أسقط الكاتب العبرى كل هذه الكلمات نقول إن عينيه لا بد قد قفزتا من كلمة : إسرائيل ، قرب أول الفقرة لكلمة : إسرائيل ، قرب نهايتها ، وكان من نتيجة ذلك أنه حذف تلقائياً - دون أن يدرى - الكلمات الواقعة بينهما »[١] .

وتُقرأ هذه الفقرة فى الترجمة العربية الشائعة كالآتى :

« **فأخذ يوناثان وشاول أما الشعب فخرجوا** » .

ومن الواضح أن حذف تلك الكلمات قد أفقد الفقرة معناها .

٣ - يقول سفر صموئيل : « حمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً : امض وأحص إسرائيل ويهوذا ... فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى الملك فكان إسرائيل **ثمان مائة ألف رجل** ذى بأس مستل السيف ، ورجال يهوذا **خمس مائة ألف رجل** »[٢] (صموئيل ٢٤ : ١ - ٩) .

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية : ص ٦٢٢ (٢) المرجع السابق .

لكن كاتب سِفر أخبار الأيام لم تعجبه هذه الأعداد فكتب يقول :

« وقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصى إسرائيل .. فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى داود فكان كل إسرائيل **ألف ألف ومائة ألف رجل** مستلى السيف ، ويهوذا **أربع مائة وسبعين ألف رجل** مستلى السيف ، وأما لاوى وبنيامين فلم يعدهم معهم » (أخبار الأيام الأول ٢١ : ١ - ٦) .

فنجد أن الرواية الثانية قد زادت فى التعداد بما يقرب من ثلث مليون وهو خطأ ينفى عن مثل هذا الكلام أى إمكانية لاعتباره وحياً مقدساً .

٤ - ويقول سِفر الملوك : « فى السنة الثالثة لآسا ملك يهوذا ، ملك بعشا ابن أخيا على جميع إسرائيل فى ترصة أربعاً وعشرين سنة » .

(الملوك الأول ١٥ : ٣٣)

وبعد أن « اضطجع بعشا مع آبائه ودُفِنَ فى ترصة وملك أيلة ابنه عوضاً عنه ...

وفى السنة السادسة والعشرين لأسا ملك يهوذا ، ملك أيله بن بعشا على إسرائيل فى ترصة سنتين .. فدخل زمرى وضربه فقتله فى السنة السابعة والعشرين لآسا ملك يهوذا وملك ذلك عوضاً عنه » .

(الملوك الأول ١٦ : ٨ - ١٠)

من ذلك يتبين أنه فى السنة السادسة والعشرين لأسا ملك يهوذا، يكون بعشا ملك إسرائيل فى عداد الأموات . وفى السنة السادسة والثلاثين لأسا يكون بعشا قد مضى على موته عشر سنوات .

لكن كَتَبة سِفر أخبار الأيام نسوا ذلك فقالوا : « فى السنة السادسة والثلاثين لملك آسا ، صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكيلا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا » (أخبار الأيام الثانى ١٦ : ١) .

وعلى ذلك تكون هذه الرواية قد وقعت فى خطأ فاحش ، إذ كيف يصعد بعشا ملك إسرائيل بعد موته بعشر سنين ليحارب آسا ملك يهوذا ؟!

* *

إن هذا قليل من كثير مما تحتويه أسفار العهد القديم . ولقد كان من نتاج فحص هذه الأسفار بواسطة علمائها أن وجدت الكنيسة الكاثوليكية وهى التى تتمسك بشدة بعقيدة الإلهام واعتبار كل الكتاب موحَى به من اللّه - أن عليها إصدار بيان يواجه مثل هذه الحقائق التى لم تعد تقبل المراء فيها . **فلقد بحث المجمع المسكونى الثانى [1] للڤاتيكان (١٩٦٢ - ١٩٦٥) هذه المشكلة التى تتعلق بوجود أخطاء فى بعض نصوص أسفار العهد القديم** ، وقدمت له خمس صيغ مقترحة استغرق بحثها ثلاث سنوات من الجدل والمناقشة وأخيراً تم قبول صيغة حظيت بالأغلبية الساحقة إذ صوّت إلى جانبها ٢٣٤٤ ضد ٦ أصوات . وقد أدرجت فى الوثيقة المسكونية الرابعة عن « التنزيل » فقرة تختص بالعهد القديم (الفصل الرابع - ص ٥٣) تشير إلى وجود شوائب به ، وإلى بطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة . وتقول هذه الفقرة ما نصه :

« بالنظر إلى الوضع الإنسانى السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة مَن هو اللّه ومَن هو الإنسان بما لا تقل عن معرفة الطريقة التى يتصرف بها اللّه فى عدله ورحمته مع الإنسان ، غير أن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان ، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهى » [2] .

إن السؤال الذى يطرح نفسه الآن : كم من المؤمنين بقداسة هذه الأسفار واعتبارها تعليماً إلهياً موحَى به من اللّه . يعلم هذا الذى قررته الكنيسة الكاثوليكية بشأنها وما تحتويه من شوائب وبطلان ؟

---

(١) عُقِدَ المجمع الأول فى عام ١٨٦٩ (٢) دراسة الكتب المقدسة : ص ٥٩ ، ٦٠ .

ويتبع ذلك سؤال آخر : ثم ما هو موقف الذين علموا ذلك من هذه الأسفار ؟

إن استقراء التاريخ - يجعلنا نقرر أن هناك أناساً عبر القرون ، وفى شتّى بقاع الأرض وبمختلف الثقافات والأوضاع الدينية والفكرية والعلمية سوف يظلون يدافعون على ما توارثوه من معتقدات بصرف النظر عما لحق بها من شوائب وأباطيل ..

فإلى هؤلاء لا أملك إلا أن أردد ما قاله المسيح فى الإنجيل :

« **اذهبوا وتعلموا ما هو ، إنى أريد رحمة لا ذبيحة** » .

(متى ٩ : ١٣)

* * *

ثانياً - أسفار العهد الجديد

(أ) حديث عن أسفار العهد الجديد :

سبق أن أصدرتُ كتاباً [١] جمعتُ فيه خلاصة أبحاث علماء المسيحية ودراستهم لأسفار العهد الجديد . وكان يمكن الاكتفاء بالإشارة إلى ما فى ذلك الكتاب عند الحديث - الآن - عن هذه الأسفار ، إلا أن احتمال عدم إطلاع بعض القرّاء على ذلك الكتاب يضطرنى إلى اقتباس بعض منه نقلاً عن أقوال الثُقات من علماء المسيحية :

١ - « إن المسيحين الأوائل لم يكونوا يعتقدون أن كتبهم المقدسة تكوِّن عهداً جديداً يتميز عن العهد القديم .. **إن العهد الجديد كتاب غير متجانس ذلك أنه شتات مُجَمَّع فهولا يمثل وجهة نظر واحدة تسوده من أوله إلى آخره لكنه فى الواقع يمثل وجهات نظر مختلفة** » [٢] .

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية .

(٢) المرجع السابق : ص ١٥

٢ - « فى فترة المائة وخمسين عاماً الأخيرة تحقق العلماء من أن الأناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقس ولوقا) تختلف عن الإنجيل الرابع (يوحنا) أسلوباً ومضموناً .

إن الاختلاف بينهم عظيم .. لدرجة أنه لو قبلت الأناجيل المتشابهة (الثلاثة الأولى) باعتبارها صحيحة وموثوقاً بها ، فإن ما يترتب على ذلك هو عدم صحة إنجيل يوحنا » [١] .

٣ - « ليس لدينا معرفة مؤكدة بالنسبة للكيفية التى تشكلت بموجبها قانونية الأناجيل الأربعة ولا بالمكان الذي تقرر فيه ذلك » [٢].

٤ - « لقد أُسْقِطَ عدد كبير من الكتب المسيحية الأولى ، من العهد الجديد القانونى وهذه تتكون أساساً من الأناجيل المحذوفة مثل : أناجيل العبريين ، والمصريين ، وبطرس .. وأسفار رؤيا غير معترف بها مثل رؤيا بطرس ، وراعى هرمس .. وخطابات الآباء والرسوليين .

على أن التاريخ المضبوط الذى تحددت فيه قانونية أسفار العهد الجديد غير مؤكد » [٣] .

٥ - « إن النسخ الأصلية (الإغريقية) لكتب العهد الجديد فنيت منذ مدة طويلة .. وإن كل النسخ التى استخدمها المسيحيون فى الفترة التى سبقت مجمع نيقية (عام ٣٢٥ م) . قد غشيها نفس المصير ومما يجب ذكره أنه حتى اختراع الطباعة لم يكن قد تم الوصول إلى اتفاق كامل فى أى من نصوص العهد الجديد : الإغريقية أو اللاتينية .

أما موقف الأناجيل فإن التغيرات الهامة قد حدثت عن قصد مثل إضافة أو إدخال فقرات بأكملها . وبالتأكيد فإن بعضاً منها قد استمد من مصدر خارجى .. إن نصوص جميع هذه المخطوطات (للعهد الجديد) تختلف

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ (٢) المرجع السابق : ص ٢٠

(٣) المرجع السابق : ص ٤٠ ، ٤١

اختلافاً كبيراً ، ولا يمكننا الاعتقاد بأن أيًا منها قد نجا من الخطأ . ومهما كان الناسخ حى الضمير فإنه ارتكب أخطاء وهذه الأخطاء بقيت فى كل النسخ التى نقلت عن نسخته الأصلية .

إن اغلب النسخ الموجودة فى جميع الأحجام تعرضت لتغييرات أخرى على أيدى المصححين الذين لم يكن عملهم دائماً إعادة القراءة الصحيحة » [1] .

*

إن هذا القدر الضئيل يكفى للتذكير مرة ثانية بقول « الحق » فى القرآن عن أسفار العهد الجديد وكاتبيها وكهانها ومَن تابعهم فى الأقوال والأفعال : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة : ١٤) .

نعم .. لقد نسوا تماماً بكل معانى الكلمة ....

ولقد كان الجزاء أن أغرى الله ﴿ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

وكان الثمن فادحاً ، دفعه هؤلاء النصارى - المسيحيون - وشاركهم فيه كثير من أبناء البَشرية الذين ارتبطوا بهم ، أو ربطهم المسيحيون بهم .

وتبلغ هذه العداوة والبغضاء بين الأمم النصرانية قمتها المأساوية فى تلك الحروب المستعرة بينها على مدى التاريخ ، وآخرها فى المدى القريب هذه الحروب العالَمية : الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ... والله أعلم بما سيأتى به الغد . وإذا كنا لا نستطيع القطع بوقوع الحرب العالَمية الثالثة فمن المؤكد أن كلا المعسكرين : الشرقى الشيوعى ، والغربى الرأسمالى يستعد لها ويجند فى سبيلها الموارد والأموال والقُوَى البشرية الهائلة . وكل هذا تجسيد للعدواة والبغضاء بين أمم هذين المعسكرين ، وجميعها أمم نصرانية .

* *

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٥

(ب) نظرة فى أسفار العهد الجديد :

أصبح واضحاً تماماً أن كتب العهد الجديد وخاصة الأناجيل تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً يلحظه كل مَن تدبرها ، وهو اختلاف يرجع أساساً إلى اختلاف المصادر التى استقى منها مؤلفوها ، أولئك الذين قال عنهم لوقا - وهو واحد منهم - فى مقدمة إنجيله : « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا .. رأيتُ أنا أيضاً إذ قد تتبعتُ كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت » . ونسوق الآن عدداً محدوداً من أمثلة الاختلاف فى أسفار العهد الجديد .

١ - اختلف متى ولوقا فى نسب المسيح وذلك حين قرر الأول أن يوسف رجل أمه مريم - الذى كانت تدعوه مريم أباً للمسيح كما فى لوقا (٢ : ٤٨) - ينحدر من نسل سليمان بن داود .

(متى ١ : ٧ - ١٦)

بينما جعله الثانى ينحدر من نسل ناثان بن داود .

(لوقا ٣ : ٢٣ - ٣١)

وذلك بجانب اختلافات أخرى ولقد بيَّن « موريس بوكاى » هذا الخلاف نقلاً عن مصادر كاثوليكية ، فى كتابه « التوراة والقرآن والعلم » [١] ، كما بينته فى كتابى « المسيح فى مصادر العقائد المسيحية » [٢] وذلك نقلاً عن مصادر أغلبها بروتستانتية .

٢ - وإذا أخذنا بما ترويه الأناجيل عن الصلب وأحداثه لوجدناها قد اختلفت فيه من الألف إلى الياء .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة : ص ١٠٥ - ١١٥ (٢) انظر ص ٧٨ - ٨٣

ويكفى أن يراجع القارىء ما ذكرته الأناجيل عن : « حادث القبض وملابساته - المحاكمات - توقيت الصلب (اليوم والساعة) صرخة اليأس على الصليب - شهود الصلب - كل ذلك وغيره كثير ، يكفى للقول بأن الأناجيل قد اختلفت فيما بينها اختلافاً بعيداً وهو اختلاف يكفى لرفض ما يذكره أحد الأناجيل ، إذا أخذنا برواية الأناجيل الأخرى .

أيها نأخذ به ، وأيها نرفض ؟

رُبَّ قارىء - درج على الإيمان التقليدى بما ترويه الأناجيل - لا يجد مفراً من أن يقول : ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [1] (الملك : ٢٦) .

٣ - وما تؤمن به المسيحية التقليدية من أن المسيح قد صُلِبَ ومات ووُضِعَ فى قبر ثم قام من الأموات فإن حديث القيامة هذا بدأته مريم المجدلية « التى كان قد أخرج منها سبعة شياطين » (مرقس ١٦ : ٩) حين ذهبت وأخبرت بطرس بأن القبر خال من الجثة « فخرج بطرس والتلميذ الآخر (يوحنا) وأتيا إلى القبر .. ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر .. فحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر .. ورأى فآمن لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغى أن يقوم من الأموات » (يوحنا ٢٠ : ٣ - ٩) .

من ذلك يؤكد إنجيل يوحنا أن بطرس رئيس التلاميذ - بالذات - كان يجهل أى حديث عن قيامة المسيح . بل إن إنجيل لوقا ليؤكد هذا الجهل للتلاميذ كلهم - وفيهم بطرس - الذى كان أكثرهم تعجباً من حديث القيامة فيقول :

« رجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله . وكانت مريم المجدلية ويوحنا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتى قلن هذا للرسل . فترائى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن . فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجباً فى نفسه مما كان » .

(لوقا ٢٤ : ٩ - ١٢) .

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ص ١٧٩

لكن أناجيل مرقس ومتى ولوقا تذكر لنا حديثا جرى بين المسيح وتلاميذه تنبأ فيه بقتله ثم قيامته من الأموات ، فهى تقول :

« ابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان (المسيح) ينبغى أن يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكَتَبة ويُقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم .

وقال القول علانية .

فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلاً : اذهب عنى يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » .

(مرقس ٨ : ٣١ - ٣٣ ، متى ١٦ : ٢١ - ٢٣ ، لوقا ٩ : ٢٢)

إن رواية الحوار بين المسيح وتلاميذه على ضوء هذه الصورة تعنى أن قيامة المسيح من الأموات أصبحت أمراً مفروغاً منه وأنها واحدة من تعاليمه لتلاميذه مثلها مثل القتل ، ذلك أن الأناجيل تذكر أن المسيح « قال القول علانية » .

ولما راجعه فيه بطرس أمام التلاميذ ما كان من المسيح إلا أن أغلظ له القول ولقّبه بالشيطان .

فإذا وجدنا بعد ذلك أن روايات القيامة التى جاءت بها مريم المجدلية كانت بالنسبة لبطرس ورفاقه كلاماً « كالهذيان » لا يمكن تصديقه ، **فإن النتيجة التى لا مفر من التسليم بها هى : أن ذلك الحوار الذى قيل إنه جرى بين المسيح وتلاميذه ، والذى تنبأ فيه بقتله ثم قيامته لم يحدث على الإطلاق ، وأن ما نجده عن ذلك الحوار فى الأناجيل لا يعدو أن يكون إضافات أدخلت إليها فيما بعد** » [١] .

---

(١) راجع كتاب : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية - الباب الرابع .

٤ - ومما لا شك فيه أن بولس هو مبشر المسيحية الأول بصورتها الراهنة ، وإليه يُنْسَب نصف أسفار العهد الجديد وهو لم يكن قط من تلاميذ المسيح ولم يحظ برؤيته والحديث إليه ولو مرة واحدة فى حياته . لكن ما اشتهر به بولس شيئان : الأول - أنه كان من أشد اليهود عداوة للمسيحية والمسيحيين ، عداوة بلغت حد القتل . وفى هذا يقول سِفر أعمال الرسل عن بولس (شاول) :

« أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب . فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أُناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أُورشليم » .

(أعمال الرسل ٩ : ١ - ٢)

وأما الثانى - فهو أن بولس أعلن فجأة سماعه لصوت المسيح من السماء أثناء ذهابه إلى دمشق ومن تلك الساعة تحوّل إلى المسيحية وصار أكبر دعاتها . لكن قصة بولس مع صوت المسيح يحكيها سِفر أعمال الرسل بصورتين متناقضتين تماماً بالنسبة للمسافرين مع بولس وقيل إنهم كانوا شهوداً لتلك الحادثة . فهو يقول عنهم فى الأولى :

« وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً » (٩ : ٣ - ٦) .

أما الرواية الثانية التى قصّها ذات السِفر فإنها تقول على لسان بولس :

« والذين كانوا معى نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذى كلمنى » (٢٢ : ٦ - ٩) .

فعلى حسب الرواية الأولى نجد شهود بولس : سمعوا ولم يروا ، وعلى حسب الرواية الثانية فإنهم : رأوا ولم يسمعوا ... ؟

إن التناقض واضح لا يحتاج إلى تعليق ..

لقد كان تلاميذ المسيح على حق حين شكُّوا فى بولس ، إذ « لما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مُصَدِّقين أنه تلميذ » (أعمال الرسل : ٩ : ٣٦) .

*

حقاً يقول القرآن أفضل ما قيل فى هذا المقام ، وقل فى الحديث ، ودل على الحقيقة :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

(المائدة : ٧٧)

* * *